

تحفة
للنشر والتوزيع

مُلتقى الأرواح النائية

فردوس نجاري

رواية

Avinous



مُلْتَقَى الأرواح التَّائِهَة

رواية

فردوس نجاري



مُلْتقى الأرواح التَّائِهَة

نوعه: رواية.

الكاتب(ة): نجاري فردوس.

مسؤول(ة) الدار: أميرة بوقفة.

الطبعة الأولى: 2024.

الإيداع القانوني: 2024/11.

تاريخ الإصدار: 24/11/2024.

ISBN: 978-9969-9859-2-4

دار تحفة للنشر والتوزيع

الجزائر- ولاية باتنة - بلدية بوزينة.

رقم الهاتف: 06.76.89.04.67

البريد الإلكتروني: tohfapublishhouse@gmail.com

جميع حقوق الكتاب محفوظة لدى دار تحفة للنشر والتوزيع،

ولا يسمح لأي جهة بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تعديل أي

جزء منه، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب

لا عن رأي الناشر، والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى.



مُلتقى الأرواح التائهة

الإهداء

- إلى أجمل شيء في حياتي، إلى من أنجبتني لهذا العالم ليمجد التاريخ اسمي، إلى "أمي" الغالية.

- إلى من أطلب منه نجمة فيعود لي بالسماء، إلى "أبي".

- إلى نبض قلبي، أختي العزيزة "مريم".

- إلى عائلي كلهم وبالأخص أفراد أسرة والدتي "خالتي الحبيبة، خالي الأكبر وزوجته وابنه منذر، وخالي الأصغر أيمن".

- إلى أمي بالتبني، إلى لغتي العربية، إلى من سأظل أعزف على كمنجات حروفها حتى تغادر هذه الروح الجسد.

- إلى أستاذتي الفاضلة "مصطفىوي نصيرة".

- إلى الكتف الذي أسندت عليه نفسي حين خذلتني قدماي، إلى قطعة السكر خاصتي "روان".

- إلى جميع صديقاتي.

- إلى كل من سببوا لي الإرهاق والحيرة، وجعلوا عقلي يضج بالتساؤلات، إلى من جعلوني أبحث عن الحقيقة بين الوجوه الكاذبة، أنا بخير، فموتوا بحسرتكم... أنا لا أكسر.

- إلى مصدر إليهامي "أفينوس"، ذاك النجم اللامع الذي كلما تأملته انشرح صدري وأحسست بالأمان.

- إلى الراوي والرّواية... إلى الحاكي والحكاية... إلى نفسي وإلى أولئك الأشخاص الذين
سيجدون أنفسهم بين سطور هذه الرّواية.
- إلى كل من فقدت قلبها حين رحل أحدهم وخذّلها، كفي عن البكاء وقفي من جديد.
أهديكم جميعاً روايتي هذه.

تنجو ذاتي في عالم الكتابة وتهلك كذلك.

لم يكن من عادتي أن أقرأ مقدمة في أي كتاب كانت إلا في كتب التنمية البشرية، ففي مفاهيمي لا وجود للبدايات أو المقدمات، إنما تتربع على العرش كلمة النهايات، لأن كل نهاية مؤلمة ما هي إلا بداية جديدة لفرح وسعادة طويلة دائمة، كما أنني لا أؤمن بفتح صفحات بيضاء لأننا إذا أردنا أن نبدأ علينا أن نتماشى مع الماضي ونتقبله، لأننا لولاه لما كنا بنفس الحكمة اليوم، وتذكروا أن العسر دائما ما يتبعه اليسر وأن الحزن لم يأت وحده بل تلاه الفرح، فبعد بسم الله الرحمن الرحيم:

{ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا }. [سورة الشرح].

سيأتي لطف الله، وتذكروا دوما هذا البيت:

وكم من لطف خفي يدق خفاه عن فهم الذي

وكم يسر أتى بعد عسر وفرج لوعة القلب الشقي

وكم من هم نعانیه صباحا فتعقبه المسرة بالعثي

إذا ضاقت بك الأسباب يوما ثق بالواحد الصمد العلي

تشفع بالنبي فكل عبد يفوز إذا تشفع بالنبي

أصبحتم على خبر جبر قلوبكم، وتحقيق أمانكم

لأقراها ربما فضولي دفعني لذلك أو ربما لأنني رأيت أن لي الأحقية في قراءتها كوني تعايشت مع أرواحهم المتهالكة، لكنني لم أتوقع أن دموعي ستهمر على خدي كالسيل.

المؤسف أن معظم الأوراق تم التخلص منها، لم أستطع الحفاظ عليها كلها وهذا أكثر ما يجعلني أدم نفسي، الكثير من الزوار تم أخذ كتباتهم والتخلص منها، لم أستطع سوى إنقاذ أوراق أعز شخصان صادقتهما في ذلك المقهى، الأخ جاسم والأخت سلى.

لم أكن أعرف أنه يمكن للناس أن يعانون كل هذا الحجم ويظلوا أحياء صامدين في وجه رياح الحياة العاتية.

لا أعلم كذلك لما سأشارككم أنتم كذلك الأهم، لكنني ارتأيت أنه لا يجب لقصصهم أن تظل مكتوبة على بضعة أوراق شبه ممزقة ملطخة بالقهوة المرة.

باشرت بأوراق الأخت سلى، تلك الفتاة الجميلة التي ترتدي اللون الأخضر دوماً وتقول أنها تنسبه للتفاؤل، لم يسبق لي أن علمت بقصتها فهي قليلة الكلام إلا من كلمات تعد على أصابع اليد، كنت أعلم أن لها قصة آلمتها بقدر ما جعلتها أقوى ولكنني لم أتخيل أن أحداثها ستكون أليمة لهذا الحد، سأترك لكلماتها أن تحكي عن نفسها ولعباراتها أن تعبر عما كان يجتلي بداخل هذه الفتاة المرحة.

أنا جريحة هذه السطور

كلماتي مخنوقة كحلقي تماما

حروفي ساكنة ظاهرا ولكنها تعبت ببصيلات عقلي من الداخل

تتكسر أحرفي في فمي فتدميه دما

وتغرق قصائدي في بحر من الدموع

سأكتب صمتي

لغة ألمي

سأكتب لغة من لا تتسع حروف الأبجدية لوصف ندوبهم

سأكتب ليلا بعدما يخلد معظم البشر للنوم، ويبقى آخرون يتمزقون بين أنياب

الأرق المكشرة والتي تتربص بهم كل ليلة كوحش مفترس، يبتسم بخبث مرحبا

بعودته كل مساء

سأكتب في مقهى قديم تحت ضوء مصباح بالٍ باهت

سأكتب في ليل لا يلصص على جروحي أحد

سأكتب عن صمت ضائع في العبث ولكن في الجوف كلام طويل يحكى

سأكتب عن تهيدة لصمتي

عن أنفاس مرهقة بين معتقل السكوت

سأكتب عن دموعي

عن بخار الروح المتألمة

سأكتب ليكون ما كتبته همسة أو صرخة

سأكتب وأرى نفسي في كل كلمة

وبين كل حرف وآخر

عند كل فاصلة ونقطة

وفي كل علامة استفهام وتعجب

سأكتب حتى أتقياً ما أكتبه

سألهم حروفي

سأكتب دون التفكير فيما أكتب حتى

كجثة حية دفنت روحها بعيدا عنها

كجثة ذبل جسدها وتفتت روحها

سأخلد مشاعري في صفحات
وستكون أنا ملي شاهدة على هذا
ما ذنب معدتي فيما أكتب يا ترى؟
ما ذنبا في الحريق والدخان الذي يتصاعد داخل قلبي يا ترى؟
أنا فقط منبوذة
منبوذة من إنسانيتي وحياتي
أنا فقط كنت أحتاج لإنسان بهيئة وطن أو جدار
سأغوص داخل ما أكتب وأجعل لهيب النار يلفح وجهي
أنا بحاجة لطوق نجاة يعتقني مما أنا فيه
لقد مر كل شيء ولكن لا شيء منه قد تم نسيانه
صدقا كل شيء يمر ولكن ليس كل شيء ينسى
أحاول أن أغمض عينايا لأتجاهل ما لا أريد رؤيته
ولكنها لا تغادر وإن أغمضت عينايا
هي تجول بذاكرتي

لقد قالها أحمد خالد توفيق

"لم أبحث يوماً عن شيء مثالي، كل ما أردته هو شخص أعود إليه يوماً وأنا منك كالرجوع للديار".

أنا مجرد فتاة عجوز شاخت روحها أضعافاً بينما لا زالت في مقتبل عمرها

يستحيل أن تعبر عني كتاباتي

فأنا أعمق من كلماتها

يسألني المارّون ماذا فقدت

أحبيب خائني أم صديق خذلي؟

فأجيب: فقدت نفسي

فهل هناك من يعيدها لي؟

أناجي وأنحب

أريد نفسي

أريد ذاتي

أنا ضائعة فجدوني

أفتش داخلي عني وأحبو إلى أمسي

ولكني لا أجدها

فهل هناك من يعثر عليها؟

يسألونني لمَ ملامحك ذابلة هكذا؟

فأرد على تساؤلهم

هل جربتم يوما بأن تشعروا بحرارة دموعكم على قلوبكم بدل عيونكم؟

أنا لا أطيق العيش مع نفسي حتى

سأكتب عن صفحات حياتي

سأكتب ما أريده

وما أتمناه

سأكتب بأنني أريد أن أعيش

أن أعيش حقا

أن أشعر بكل ما حولي

أنا حية لأنني لست ميتة بعد

فقط روجي فارقتني منذ زمن

سأكتب عن خوفي من أن أموت وحيدة

طيلة حياتي وأنا وحيدة

فهل سأموت كذلك بمفردي؟

أستظل لعنة الوحدة تلاحقني طيلة حياتي

سأكتب وأكتب وأكتب

فلن أترك أحرفي لتموت

ستظل أنفاسي تناشدها

وعيوننا تناجها

بألا تتركي

لأن في تركها لي فنائي واختفائي

كطير كسر جناحيه ومنع من التحليق

كشمعة انطفأ فتيلها

وكمصباح احترق

كطفل سرق منه والداه بالونه ومزّقه

هكذا كسرت ومنعت، انطفأت واحترقت أحلامي

هكذا سرقت ومزقت أمنياتي

تناثرت كما تتناثر حبات الرمل وتهرب من بين الأنامل

فإلى أين المفر؟

أين أهرب من واقعي؟

إلى متى سأظل أهرب؟

أتعلمون ما أصعب أن يهرب الإنسان من واقعه

أليس من المحزن أن يكون الهروب هو الحل الوحيد؟

أن يكون الواقع بمثابة عدو لا يمكن مواجهته

إننا نحاول عبثاً أن نهرب من ثقل الحياة

ولكننا نجد أنفسنا محاصرين بدوامة من اليأس والكآبة

أليس مؤملاً أن يكون الخيال هو الملاذ الوحيد؟

أنا غارقة بين أفكار

أبكي لأنني أتمنى أن يتحقق شيء واحد من أحلامي

أو أن أتوقف عن الركض وراءها

سأظل أرسم بخيالي عوامي

فما حيلة المضطر غير خياله؟

تنفلت أحلامي مني رويدا، رويدا

أشاهدها تغادر وأنا مكتوفة الأيدي

أسحق هزائي ثم تسحقني

أنا وهي في معركة لا نهاية لها

أدرك اليوم أن الحياة لا ترحم مفرطي الحساسية

وأنه علي أن أكون أكثر تحملا وأقوى

فالعالم أقسى من أن يعطينا إجابات لكل الأسئلة التي تدور في عقولنا

والبشر أقسى من أن يتفكروا في الكلمة قبل لفظها

أحلام تراودني

هي بسيطة لدرجة ألا يمكن أن تتحقق

أدس بكائي ضمن كتباتي، وأضيف لها مرارة خيباتي

الكتابة مؤلمة جدا

أليس مؤلماً أن تحمل قلماً وتوثق حزنك على دفتر خيبتك

هي مقطوعة سيمفونية تعزفها الحياة

اختارتني كضحية لها

ترمي بقذائفها تجاهي دون رحمة

أبكي على عمري الذي ضاع على أيامي وسنيني

التي تسللت هرباً مني

أرثي نفسي، أرثي حالي

فهل لي حل غير أن أرثيها؟

أه من جرح الزمان

أه من زمن غدر بي وسلب بساط السعادة من تحت قدمي

أسير تائهة، ضائعة

إلى أين لا أدري؟

أبيت مع الجراح

تعذبني وأعذبها

هويتها وأنا لا أشك أنها تهواني

تعلمني فن العذاب وأعلمها فن الصبر

فأوجعني يا جراحي لا تراعي من بكائي وأنيبي

امنعيني من التحليق وهات كل ما عندك من جور السنين

هل ستشفى روحي يا ترى؟

أم ستبقى متعبة

أهاب العالم، أختفي منه خلف جدار زجاجي يحميني منه

هل هو حقا يحميني؟

أنا لا أعرف حقا

لا أتكلم عن ألمي لأحد

ليس لأنني لا أبالي به

بل لأنني غارقة فيه حد المرض

أنا مريضة بلا مرض

أليس هذا مخيفا ومرعبا

لا أحد يعرف تفاصيل حياتي سواي؟

أنا وكلماتي فحسب

تنسج العناكب أفكارى بخيوطها

رائحة عفنة تجول فى عقلى

كجثة ميتة تركت من دون دفن

هل تشمونها؟

عقلى ثائر هل تسمعون ضجيجه؟

أتساءل ماذا لو كنت أسيرا على قارعة الطريق

ووجدت نفسى هناك

ما الذى سأفعله؟

أجل سأركض وأضمها نحوى

سأطبق عليها فى حضنى

سأمسح على شعرها وأخبرها بأن كل شيء على ما يرام

سأخبرها أنني معها

وأن كل هذا سيمضي

ما هو سوى كابوس مرعب

يستحيل أن تكون هذه المهزلة هي تفاصيل حياتي

ترعرعت في عائلة ترى الأنثى عارا وأنها نقمة وابتلاء، يا لهم من جاهلين وكأنهم ينتمون لعصر الجاهلية القديم، أما الذكر فهو الفخر والنصر وملك البيت وسيده.

كنت الطفل الثاني لهذه الأسرة المفككة التي تعيش في تعاسة دائمة بعد أخ يكبرني بست سنوات، وبدل أن أكون أميرة مدللة كنت خادمة منبوذة لهم.

عشت سنوات ضياع هناك، لم أرتد في حياتي فستانا أو تنوره أو ثوبا نسائيا بألوان زاهية ونظرة، فقط ملابس أخي التي لم تعد بمقاسه أو التي لم يعد يرغب بها، أو لأنه اشترى ثيابا جديدة أجمل، فيكون من نصيبي ارتداء القديمة دون تدمير أو اعتراض وكيف أفعّل؟ وأنا أعلم أن ضربات النعال ستسقط على جلدي كصواعق حارقة لتلونه بكدمات زرقاء عميقة تؤلّني لما يزيد عن شهرين.

كانت المسكينة تنفذ طلبات والدي كلها، تطبخ وتغسل وتنظف ولم تقصر بواجباتها المنزلية قط غير إهمالها التام لي، وعدم منحها الحنان الذي يحتاجه أي طفل لينمو بشكل سليم، كانت تخاف أن يراها والدي تعتني بي أو يعلم بأنها فعلت فيضربها دون رحمة لهذا أهملتني.

أتذكر جدا تلك الليالي التي كان يعود منها مخمورا، أو تلك التي يخسر فيها إحدى جولاته في القمار، كل ما كنت أفعله هو التوجه إلى غرفتي لأختبئ تحت بطانيتي وأنا أرجف راجية من الجدران أن تلتهمني فأختفي، ثم بلا سبب بعد أن ينتهي من أمي يأتي إلي ليضربني.

لم يكن أحدنا ينجو من بركان غضبه الثائر حتى أخي ابنه المحبب إلى قلبه كان يأخذ نصيبه من الكلام الجارح والضرب بالعصي، وأظن أن هذا هو الشيء الوحيد الذي تعادلنا فيه أنا وأخي.

بلغت السنة السادسة من عمري وانتقلت إلى مقاعد الدراسة، جميع الأطفال يمشون مع آبائهم بابتسامة عريضة على وجوههم، أما أنا سرت مكسورة بخطى متثاقلة إلى مكان لا أعرف عنه سوى أنهم سيوبخونني على ثيابي الرثة وشعري المجعد، أمضيت أيام دراستي بمعدلات ما بين المتدنية والمتوسطة حين كنت أبذل قصارى جهدي في الدراسة، عانيت من مشاكل فقدان التركيز لأنه ما أن تبدأ المعلمة بشرح الدرس حتى تبدأ أصوات صراخ أبي ونحيب أمي وسخرية أخي بأنني غير كفء ولا أستحق الدراسة تطن في عقلي الممتلئ بضجيج الأفكار التي لا تتركني لا في ليالي ولا نهاري، تلاحقني كالكابوس دواما.

أنا سأخبرك مجرد فتاة بشعر مجعد وهالات سوداء تحيط بعينها، وجسم نحيف
مع وجه شاحب، أجل أنت مجنونة تبدين كالمجانين تماما.

واستمرت تنادني هكذا طيلة فترة عيشي معها، نست اسمي ونست سلمي صارت
تراني فقط مجنونة.

ومضى سؤال ببالي الآن: هل أحببت والدي يا ترى؟ هل أحببت أمي وأخي؟

لا أظن، أنا لم أحبهم قط ولكني لست المذنبة بل هم

هم الذين لم يرغبوا بي، كنت عبثا عليهم.

ضحوا بي بمجرد أن أتتهم الفرصة المناسبة لذلك

ليتني... ليتني ما كنت ابنتهم

ليتني كنت ابنة عائلة أخرى، لا يهم وضعها المادي

فقط عائلة تحبني

هل كانت أمنيتي صعبة لهذه الدرجة؟

هل هي مستحيلة؟

فقط عائلة أحس معها بشعور سعادة ينبع من داخلي؟

أم تمشط شعري

وأب يعانقني ويحكي لي قصة ما قبل النوم

هل كانت مطالبى غير ممكنة؟

لمّ أنا؟ لمّ اختارنى القدر بالذات لأعانى من فقدان العائلة رغم تواجدها؟

لمّ لم أعش طفولتى كباقى الناس؟

أنا مجنونة

أجل أنا كذلك، عائلتى التى جعلتنى هكذا

أنا مجروحة

والجريح من عائلته لا يشفى أبدا

أنا مغتربة وغريبة

أجل، أنا لا أملك هوية تنتهى لهذه العائلة

أنا ضائعة

أنا لا أعرف نفسى

أنا... أنا فقط أريد من يجدنى، يحنو على ويهتم بى

أنا فقط أريد من يمشط شعري

أنا فقط أريد...

أن يحبني أحدهم دون مقابل

أنا مكبله ومقيدة

أجل أنا كذلك، مكبله بهزائي الخاصة

بضعفي الذاتي

بانعدام ثقتي بنفسي

بحساسيتي المفرطة

بدموعي التي تتسابق على وجنتاي

متعمدة خذلاني

وكأنها تقول

كفأك يا سلمى، كفي عن التظاهر بالقوة والاتزان أنت لست كذلك

أنت لست سوى فتاة مجنونة ووحيدة

أنت لست سوى شخص مكروه لا يحبه أحد ويشمئز منه الجميع

أنت لا تختلفين عن الشحاذين في شيء

كفأك التظاهر بالسعادة

كفأك البحث عن نفسك ومحاولة إثبات ذاتك في هذا المجتمع الطاغى

أعلنى استسلامك وارفعى الراية البيضاء

أنت لست كفننا للتعايش في هذا المجتمع

أنت لست سوى خرقه يرممها الآخرون بمجرد أن ينتهوا من حاجتهم إليها

انظروا إلى هذا الجرح بداخلى

هل ترونه؟

هل ترونه يكبر ويتسع أمام أعينكم؟

لا بالطبع أنتم لا تفعلون

لا تستطيعون رؤيته

أنا فقط من أراه وأشعر به وبألمه الحاد يفتك بى ويمزقنى لأشلاء

أنتم لا ترونه لأنه بداخلى فى أعماقى

لا أحد يرى جروحي الغائرة سوى

تعرفت في سن الرابعة عشر على فتى، كان لطيفا أو ربما أنا من بدالي كذلك،
لأنني كنت بحاجة إلى حنان عاطفي حرمت منه، فادعيت ذلك، تعلقت به كما يتعلق
الرضيع بأمه وتمسكت به بأطراف أصابعي رغم علمي بأنه يمضي وقته بي لا غير
ولكنني أحببته.

كنت جائعة عاطفيا، بحاجة لمن يشبع عاطفتي، بحاجة لمن يحسسني بقيمتي، بأنني
موجودة، بأنني مرئية وبأنني إنسانة، أو لست كذلك؟

أو لست من البشر وأملك مشاعر؟

أنا لا أستحق ما حدث معي

أنا لا أستحق حياتي البتة

أنا إنسانة

لي مشاعر ولي أحاسيس

كان حسام يعاملني دوما بدونية، أنه أفضل مني، لأنني أريته نقاط ضعفي مع
أني لا أملك نقاط ضعف بل أنا بكاملتي ضعيفة. يرمي لي كلاما جارحا من بينه كأنه
ذهب هو وعائلته ليتعيشوا أمس في مطعم فاخر ثم يردف:

"نسيت بأن عائلتك مفككة وأمك ميتة"

ويتبعها بضحكات مخنوقة يحاول كتمها ثم يقول لي:

ذات يوم كنت أسير من إعداديتي عائدة للبيت فوجدت قطعة صغيرة بيضاء اللون متكورة على نفسها من الخوف والجوع، تموء بصوت مشروخ وخافت، شعرت بأنها وحيدة مثلي، بأن عائلتها تركتها وتخلت عنها، قررت في تلك اللحظة أنني سأصير عائلتها الجديدة ولن أتركها وحدها أبدا وسأكون أنيستها دوما وأبدا.

أمسكت بها، أحسست بالعرشة التي تسري في جسدها، ضممتها إلى معطفي ثم توجهت بها صوب المنزل، كانت صغيرة جدا على أن تترك وحدها، كانت بحاجة إلى أمها.

ما إن رأتها زوجة والدي حتى بدأت تصرخ بأعلى صوتها مما جعل والدي يستيقظ وهو لا يزال شبه مخمور، سألها ما بها فأجابته بأني أحضرت حيوانا مفترسا إلى البيت وأني أسعى إلى تدمير العائلة بتصرفاتي الطائشة، وأن هذه القطعة المتوحشة كما أسمتها تلك العجوز الشمطاء فقام من فوره وانهمر علي بوابل من الشتائم واللعنات ثم أمسك بيدي بقسوة وأخذ بيدي خارجا ثم قال لي:

ابقي أنت وهذه المفترسة خارجا، لا أريد رؤيتك مجددا.

كنت وحيدة وضعيفة ولكنني لوهلة استجمعت شجاعتي وقررت المغادرة،

مغادرة جحيمي للأبد، ولكن ما كان ينتظرني كان الجحيم الأكبر

هربت من حفرة لأقع في حفرة أخرى

لا أريد أن أذكر ما حدث أبدا بعدها ولكنني سأقول لكم ملخص الحديث،
اضطرت لبيع جسدي حتى أكل وأشرب.

مارست الرذيلة مكرهة، وللأسف أنجبت طفلا غير شرعيا.

كان الأمر مرعبا بالنسبة لي

تركته في حديقة

ليعيش قدره وتتكور بين مصاعب الحياة

تركته في يومه الأول

أنا أشعر بالذنب، بالندم لأنني ما احتويته

لأنني حرمته من أمومي

لأنني جعلته يعيش نفس شعوري

وكيف أكون أما وأنا أناهز من عمري السبعة عشر سنة

لا أعلم إذا ما كان حيا أو مات

لا أعلم عنه شيئا

ثم هاجت بي أمواجي هجا

البحر عدوي والفؤاد غريق

امتطيت نعوش الموت

أتوجه للمجهول

إلى مكان لا أعرفه سوى أنهم يدعونه بالجنة الدنيوية

وصلت

أجل، كنت هناك على الضفة من العالم الآخر

حملت كاتيانيل وحسب، عانقتها وشممت هواء الحرية

أجل، لقد تحررت من والدي وزوجته

تخلصت من غطرسة أخي

تركت حسام وذكرياته خلفي

تخليت عن الجميع بما فيها أحلامي

أنا الآن فتاة حرة

عشت في الشوارع أكل من فتات الخبز المرمي في الأرض لمدة ما يزيد عن شهرين

ثم ماذا؟

تخلت عني رفيقة دربي هي الأخرى

سلمها الموت مني

أنا لم أنسها فقد كانت ألفة الروح ومن تألفه الروح كيف ينسى؟

احتواني ملجأ أيتام عشت فيه مدة من الزمن في غرفة تشبه جدرانها المتصدعة،
جدران روجي،

تخلت عن الماضي الذي كنت فيه لكنه لم يفعل ولا أظنه كذلك

سيعيدني للقاع كلما حاولت النهوض

سيبقى كل ليلة ينفلت من عقال الذكريات ليمنع عني لذة النوم والشعور
بالاطمئنان

ثم ماذا حدث؟

تزوجت أجل فقط هكذا

بدل أن أنقذ نفسي من القاع

عاودت السقوط فيه

لا زلت أتساءل إلى يومنا هذا هل أحببته أم لا؟

وكيف أعرف ذلك وأنا لم أعرف ما هو الحب يوماً؟

كيف أفهم ما هو الحب وأنا لم أره أمام ناظري ولو لمرة؟

أظن أنه على كل زوجان أن يتزوجا عن حب لأن الحب شعور وراثي ينتقل للأبناء

لم يدمر الآباء أنفسهم وأبناءهم هكذا؟

كان زوجي كما أسميته دوماً ثلاجة

يستنزف مشاعري دوماً

لم يبادرني الحب قط

أنا فقط كنت كشمعة أحرقت نفسها لتضيء غرفة شخص أعنى

فقط كنت أمطر حبا لشخص يكره المطر ويحمل مظلة دوماً.

شخص يكره الحب...

شخص دوماً تعابير وجهه فارغة.

وكنت أنا ببايثاريتي المفرطة أقدم له وأقدم له دون مقابل أو توقف

عساه يلتفت نحوي

لكنه لم يفعل

أظنني كنت بعقلية الضحية لهذا وقعت في شباك نرجسي مغرور

كنت حينها امرأة محطمة

لأحمل بين يدي المرتجفتين خنجرا وأنزل عليه بوابل من الطعنات

قتلته... أجل أنا فعلت ذلك

أصبحت مجرمة

دخلت بعدها السجن لأكثر من عشرين سنة

هل انتهت حياتي؟ لا لم تفعل

إننا محكومون بالأمل، ما يحدث اليوم لا يمكن أن يكون نهاية التاريخ

غادرت السجن وقد تعلمت الكثير فيه

أسست جمعية للنساء

لا يمكن أن أجعل امرأة واحدة تعيش ما عشته مجددا

سأكرس ما تبقى من عمري لإصلاح حياة النساء في هذا الكون

سأكون كشمعة تضيء لكل أنثى حياتها المظلمة

"لل كلمات قدرة تدميرية فائقة، تحدث دوما شرخا في نفس المرء فاختراروا كلامكم بعناية."

"لكل أحد معاناته، لكل أحد أمه، لا يمكنك أن تدري ما وراء تلك الابتسامة، فأحسنوا الظن بالناس."

- سأجعل الآن الأقدار تسوقكم إلى قصة الأخ جاسم، ذلك الذي جن بسبب الحب، سأترك لكم أن تسمعوا قصته البسيطة وتستمتعوا بجمال كلمات الغزل والحب، والخيبة والألم كذلك:

جرتك صديقتك ميلينا ليس ببعيد عني، صرختُ في وجهك قائلة:

- ما الذي تفعلينه؟ هل جننت؟

أجبتها مستغربة:

- ما الذي فعلته؟ ألم تري مدى وقاحته وفضاظته؟ إنَّه شخص قليل الأدب.

رفعت صديقتك حاجبها ثم قالت:

-ألا تعرفين من يكون؟

أجبتها ببلاهة:

-لا أزيوس مثلاً!؟

قالت هي صارخة في وجهك:

-ما خطبك أنت وقصص آلهة اليونانيين؟

أجبتها غير مبالية لكلامها:

-تدركين جيداً أنني متيِّمة بمعرفة هذه الحضارة كما أن أزيوس هو آلهة البشر في

معتقداتهم يا ذكيرة.

استفزرت إجابتك صديقتك الأجنبية تلك وقد ازدادت حدَّة صوتها عمَّا كانت عليه:

-سنتورط نحن في المشاكل بسببك، إنَّه جاسم رمزي بن عمر رمزي.

رفعت أنت حاجبك كما تفعلين دوما عندما لا تعجبك إجابة أحدهم أو تستفزك:

-بحق السماء من هؤلاء؟

ضربتُ صديقتك جبهتها، أظن أن هذه الصفة مشتركة بينكما، ثم قالت وهي تستشيط غضبا:

-إنَّهم من أثرياء دولة البحرين، كما أنه أغنى وأشهر فتى في جامعتنا.

أجبتها أنت بعدم اهتمام وبرودة أغرتني:

-تدركين جيدا أنني لا أبحث عن المشاهير وأعمالهم وأموالهم، أنا أعمل على نفسي لأفوقهم مالا وشهرة، أما مراقبتهم وعيش تفاصيل حياتهم الشخصية ليست من اهتماماتي ولا من أولوياتي.

_ آهِ من شخصيتك والكاريزما التي تملكينها آهِ.

_ غادرت يومها لكنك تركت أثرا كبيرا في نفسي لا زال محفورا فيها ليومنا هذا.

_ رَمَقْتِك بعدها عدَّة مرات في الجامعة، لم أكن قد رأيتك قبل ذلك اليوم قط لكن بعده كنت أول من أبحث عنها بين العيون وإلى حدِّ الجنون عند ولوجي لتلك الباحة، ربَّما ارتبط بك عقلي الباطني لا إراديا فأصبح لا يفكِّر إلَّا فيك، أحمد الله كثيرا على

نعمة لقائي بك، أغمض عيناى كل ليلة راجيا منه بأن يحميك ويحفظك لي يا حور
عيني في الدنيا والآخرة.

لأعترف، راقبتك كثيرا فلم تهمني فتاة مثلك لأنه أصلا لم تكن هناك فتاة في
الجامعة ولا تعرفني وكأنتك أتيت للتو من بلد آخر أو عالم آخر لا تفقهين شيئا في
هذا المكان لكنك تعرفين كلَّ شيء ما عدا الأشخاص، أغراني كثيرا أسلوبك في
الحياة ونمط عيشك ومدى تركيزك على أهدافك وعدم اهتمامك بالأمر التافهة.

قتلني فضولي حتى أبحث عنك، أن أعرف الفتاة التي لا تعرفني، سألت أصدقائي
عنك فوجدت أنه لا أحد له معرفة بك، أتضح لي حينها أنك جوهرة في محاربتها
تحميها من أمثالنا، نحن الذين لا يميل هوانا إلا للواتي يركضن وراءنا عكسك يا
صاحبة الكبرياء الحقيق، نحن نبحت عمّن تبيع شرفها لنا، نبحت عن اللواتي لا
يدركن قيمة أنفسهن، أعترف لك بهذا لأنه يسهل علينا استغلالهن.

أنت، أنت كالقمر صعبة المنال أو لنقل مستحيلة المنال لا يصلك إلا رائد الفضاء
ذاك الذي يتدرب بجِدٍ ويتعب ويكدُ ويشقى ليصل إلى سطحك، أنت جنة نعيمها
أنت، أنت طائر حرٌّ بتغريدة أسرت قلبي وهزّت عمق كياني، أنت ملاكي وأنت أملي
وكل تفكيري بك وفيك، أنت من رسمت لي حلما ونسيت أنه لا خير في حلم بلا
أفعال، يبدو أنني سأحلم بك طيلة حياتي لأنني لا أستحق أن أنعم بك فأنت
تستحقين من يقيم لأجلك حربا ليحظى بك حبًّا. أنت بتفاصيلك الأصلية كفرس
صنّفت بالنقاء، أنت امرأة لن تعادي ثانية في هذا الكوكب.

_رمقتك مرّة وأنت تهمين بالولوج إلى الفرع الخاص بالطيران، أردت أن أتأكد من أنك تدرسين هناك فجلست في الرواق أنتظرك ثلاث ساعات متواصلة.

_أنا مستعدُّ أن أنتظرك عُمراً إن كان لي في النِّهاية نصيب بأن أتأمّل ملامحك العادية بطريقة مميزة.

_أتعلمين يليق بك الطيران يا عزيزتي وكيف لفتاة عزيزة النَّفس عالية الغرور، شامخة صامدة كالجبال أن تبحث عن مهنة في الأرض، الأرض لا تسعك يا عزيزتي هي أصغر من أن تتحمل كبرياءك، السماء وحدها من تليق بك فالسحب بيضاء كقلبك وطهارة روحك والنجوم المتألّثة ليلاً في السماء تشبه تفاصيلك الصغيرة وعشوائيتك الفريدة وبعثرتك المنظمة.

_لكنك القمر، أنت القمر بحد ذاته.

_كنت آخر الطلاب المغادرين للقاعة رأيتني لكنك تجاهلتني وكأنني غير موجود، وكم مقتت يومها تجاهلك ذلك لي فأنا ذكر يكره التجاهل ويعشق الاهتمام المفرط والإذلال.

_ركضت نحوك ميلينا التي كانت بدورها هي كذلك تنتظرك، عانقتك ثم قالت لك بالانجليزية:

-Hi ! I miss you my sweety.

-فأجبتها بصوتك الرنان شبيهة تغريدة العندليب:

-Me too my love.

-ناداك المدرس قائلاً:

-Sorry; miss kraydine.

_التفتت نحوه بابتسامة بريئة وأنا من ضعفت في تفاصيلها سابحا ببصري بين حنايا وجهك المشرق كإشراق الضحى، أتعلمين أحسد أحياءك كثيرا لأن لهم حظ كبير في رؤية ابتسامتك الساحرة، كيف لا يخشى أن يسقطوا مغى عليهم من جمالها؟

-واثق أنّ مقتلي سيكون بسبب ابتسامتك القمرية التي تذيب أركان فؤادي المتهشم، ليتك تعلمين كيف ينتفض قلبي عند رؤيتك تبسمين، لولا وجود قفص صدري يمنعه من التمرد والخروج عن السيطرة لكان خرج عن موضعه.

_وإن قلبي يتمرد دوما عندما تبسمين يا نارديني.

_ابتسامتك كأنها تريق لكل داء أصبت به، فامنحيني التريق ولا تبخلي علي به يا عزيزتي، فسبحان من سؤاك.

-أنت جميلة، لا بل أنت فاتنة الجمال في عيني، أنا لا أبالغ إنمّا أخبرك الصدق وحسب، أخبرك الحقيقة، أنت جميلة دون ملامح صاحبة وقد زادتك ابتسامتك جمالا فوق جمالك، أفدي نفسي لها لكي لا تختفي وتغيب عن محيّاك فتختفي إشراقه وجهك وسطوع نوره.

-أجبت مدرسك ب:

-Yes, sir.

_ لو كان لي الحق بأن أتحكم فيك، لو كنت لي لمنعتك من أن تكلمي أحدا وأن تري أحدا، فلا يحق لأحد أن يسمع صوتك غيري ولكني أتخيل فحسب، فأنت فتاة لا تحب لأحد أن يتحكم بحياتها، فتاة تكره الأوامر وإن كان في سبيل النصح، أنت كطائر حر يموت في قفص التحكم وأنا لا أريد أن تموتي بين يدي.

_ قدم لك المدرس بحثا ثم قال لك:

-هنيئا لك، أنت تبذلين جهدا كبيرا، المزيد من النجاحات لك يا

أنسة كرايدن.

_ احمرت وجنتاك وظهرت نشوة الفرح على محيّاك ثم قلت بنبرة طفولية:

-Thank You sir .

_ أمّا أنا فضعت في ملامحك العربية، شعر طويل يصل إلى منتصف ظهرك مموج بلون بني فاتح ممزوج بخصلات ذهبية تلمع حين انعكاس أشعة الشمس الساطعة عليها، عينان مبطنتان بلون البن الداكن ورموش طويلة ملتفة حول عينيك تتقن الفراشات الغناء والرقص عليها، أسرت أنا بجمالها ورقّتها.

_ أتساءل كيف لدائرة صغيرة كوجهك أن تتحمل كل خرائط الجمال بهذا التناسق؟

_ أتعلمين أنني أراقب النجوم حالياً لعلّي أتقن كتابة شكلك وأفصّل في ملامحك.

_ بوجهك بعض الحبوب لكنها ليست سيئة، على العكس أراها تزين وجنتيك
_ المثلجتين بشعاع ينير العالم بضياء، ربما أكثر ما جذبني لك هو عدم وضعك
_ للماكياج ولا قطرة ماكياج على وجهك حتى أحمر الشفاه الذي تستخدمه النساء.

_ لست كباقي الفتيات اللواتي يستخدمن آلاف المنتجات على وجوههن.

_ سألتك ذات مرة مستفسراً:

-ناردين، لمّ لا تضعين الماكياج على وجهك؟

أجبتني وأنت ترفعين كوب القهوة الحليبية إلى شفتيك الورديتين دون مرطب أو
أحمر شفاه بينما أدرس أنا سحر نظراتك.

-ولمّ قد أضعه؟

_ أجبتك ببلاهة طفل:

-أقرانك من الفتيات يصرفن روايتهن عليه، ولا يغادرن منازلهن دون وضعها.

_ رفعت حاجبك وقد أكد لي أنّ كلامي لم يرق لك، ثم قلت:

-إنّهنّ منعدمات الثقة بالنفس.

-أفينوس، يبدو أنك تراني غير جميلة.

أجبتك مقاطعا كلامك نافيا إياها:

-على العكس، أنت أجمل ما رأيت عيناى.

رمقتنى أنت بنظرة عدم تصديق ثم تحركت شفاهك وعيناك تحديق بقلب عيناى:

-يا لك من كاذب.

أقسمت لك أنّ كل حرف قلته كان صدقا، تدركين أنت جيدا أنني لا أجيد المجاملة
أنا أغرمت بروحك وطهرها يا ناردينى.

تساءلت قائلة:

-جاسم لم أحببتنى أنا بالذات؟

لم أفكر أبدا بجوابى أو أزنه فقد كان نابعا من قلبى:

-لأنك كالبركان.

قاطعتنى مندهشة:

-ماذا؟ كالبركان؟

وضحت مقولتى:

-لأنك تبدين من الخارج صلبة صلدة مجرد رماد لا شعور له، لكنك من الداخل
متّعدة تفيضين بالحب والحنان.

نظرت نحوي بغضب:

-جاسم ما هذا الوصف؟

أجبت تسأؤلك بينما أداعب بأناملي الكتاب الموضوع فوق الطاولة وأقلب صفحاته:

-وهل أنا نزار قباني أو محمود درويش حتى أغازلك غزلا يروق لك وينال إعجابك
ويبهرك؟

أجبتني ببلاغة:

-إن كنت تحبني فستفعل لست مضطرا لأن تكتب رسائل طويلة وكتبا عني تكفييني
بضعة أسطر أقرأها أنا وحسب وإن كانت لغتك رديئة.

-بس لغتي مثل الزفت لا أعرف مصطلحات حلوة ولا خط يدي جميل.

-غازلتني قائلة:

-كل شيء يأتي منك حلو وبالمناسبة خطك يروقي.

_ واصلت ارتشاف مشروبك، وتركت لي مساحة الغوص والغرق في بحر كلماتك
الغزلية، إنَّها تغازلني بكبرياء وتداعب حروفها شراييني وأوردتي.

_ونظراً لشهرتي الواسعة ومعرفتي لم يتعسر الأمر علي مثلما كان ليتعسر على طالب آخر، ومن حسن حظي وجدت الأنسة جورجيا سميث. لي معرفة وطيدة بها، وابنها يعد من أحد أصدقائي وهو أكبر مني قليلاً، هي امرأة في منتصف عقدها الخامس وبرغم التجاعيد التي تملأ وجهها إلا أنها لا زالت تحافظ على نظارته للعيان ورغم كبرها ما زالت حيوية تحافظ على جسمها من الترهل، أشعر بمشاعر ودية تجاهها، فإني أعدّها كأهم ثانية لنفسني فهي تفهمني من عيني وتقرأ ما يختلج به صدري فلا أحتاج أن أنبس ببنت شفة.

_قرعت الباب ثم دخلت عانقتها واعتدلت في الكرسي المقابل لها فطفقت تسألني عن حالي وحال عائلتي، دراستي التي أهملتها منذ زمن وما إلى ذلك من أسئلة روتينية تكريهينها أنت.

_كنت أجيب باختصار فلعلّ وعسى تجود الخالة عليّ بمعلومة عنك.

_باشرت أنا بالسؤال أولاً:

-هل يمكنني أن أطلع على الطلاب المتخصصين بمجال الطيران؟

_نظرت الخالة نحوي باستغراب ثم تساءلت:

-ومن هذه التي سرقت قلبك ولم تستطع الحصول على معلومة عنها فلجأت إلي؟

أجبت عن سؤالها وأنا أحاول أن أوارى مدى اهتمامي الكبير بك:

-لا، هي مجرد فتاة جذبتني أفعالها وتصرفاتها فقط.

حدقت الخالة بي:

-جاسم بني أعرفك جيدا، لا تنسَ أنك كبرت وترعرت بين أحضاني وهذا ليس من عاداتك.

تجاهلت أنا كلماتها فأعدت صياغة سؤالي:

-هل لي بأن أعرف الطالبات المتخصصات بمجال الطيران أم أغادر بحثا عن سبل أخرى

_وقفت الخالة جورج من على كرسيها وفتحت الخزانة الحديدية الموضوعة بجانبها واستخرجت ملفا كبيرا، بدأت تبحث فيه وتقلب صفحاته الواحدة تلو الأخرى ثم قالت:

-خذ، ها هو سجل طلاب هذه السنة، وتذكر أنا أفعل هذا لأجلك فقط لأنك في مقام ابني.

_شرعت أقرأ الأسماء بلهفة شديدة وكأنني طفل رضيع يرضع حليب أمه بسرعة من فرط جوعه، فجأة رمقت اسمك فتضاربت نبضات قلبي حتى كادت تدوي بصوتها في أرجاء المكان، لا أعلم ما عبرت عنه ملامحي آن ذاك ولكن الخالة سميث أدركت أنني وجدت مبتغاي، ربما ابتسمت لا إراديا فأنا دائم الابتسام عند مرور طيفك بخيالي.

_هتفت بصوت عال: وأخيرا كرايدن ناردين بلسم.

_ آه يا ناردين آه، وعلى وقع الحروف أثر في النفوس، أنت أمانى فلا تتعدي عني رجاءً، أنا لا أتنفس إلا بالقرب منك أختنق في بعدك، لا يتحسن مزاجي إلا بالحديث معك ويتعكر عند تواجدي مع غيرك.

_ أنا أهواك لا بل أنا أتنفسك، أنا متيم بحبك فلا تبعديني عنك رجاء.

_ وشارب الخمر يصحو بعد سكرته وشارب حبك لا يصحو أبدا.

_ أنا بدونك كطفل يتيم وامرأة أرملة أو ربما تكلى تنحب فقيدها وفلذة كبدها، أنا بدونك لا شيء فلولاك لم أكن لأعرف ذاتي، أعترف أن لي ماض سيئ: فتيات، مستوى دراسي متدني، رفقاء سوء، وغيرها من الأمور غير الحميدة... أنا أسعى لأصلح ذاتي وأبهرك بتغييرى، أو لست أنت من تلفتها محاولات المرء في إصلاح طباعه لذا أرجوك لا تحاسبيني بماض مضى يا بلسمي رجاء، فقط تعاملني معي حاضرا ولنبنى مستقبلنا معا.

نظرت الأنسة نحوي ثم قالت بنبرة ممزوجة من الاندهاش والغضب:

-هل جننت؟ هل تعرف من تكون هذه الفتاة حتى؟ لن أسمح لك بأن تمضي وقتك بها يا جاسم، لن أسمح لك بأن تدمر مستقبل هذه الفتاة الزاهر.

نظرت نحوها ثم قلت:

-ألست في مقام أمي؟ ألست تقرئين عيناى، لا أعرف هناك... هناك شيء بتلك الفتاة ربما هي هالة تحيط بها طاقة تجذبني نحوها كالمغناطيس لا أستطيع مقاومتها يا

-عدني يا جاسم بأنك ستحافظ على ناردين، وأنتك ستصون قلبها وتحمي عرضها
وأنتك لن تستغلها.

_سكتت أنا وتاهت حروفي في حنجرتي فلم أستطع أن أنبس ببنت شفة وكأن حبالِي
الصوتية قطعت ومزقت.

صرخت الخالة مجددا في وجهي:

-عدني يا جاسم... عدني.

_خرجت أنا مغادرا تاركا ذكرى أليمة تخصني في ذلك المكان، لم أستطع أن أبقى، لا
زال لهيام أثر في قلبي وقد نبشت الخالة جورجيا جرحي الدفين، يقال لا تنبش جرحا
لا تعرف كيف تداويه وأنت الوحيدة التي بمقدورها مداواتي ومعالجتي يا ناردين يا
بلسي الشافي.

_ويقال أيضا أن الرجل ينسى الأنثى بأنثى أخرى وأراك أنسيتني في هيام تلك الفتاة
التي ائتمنتني على قلبها ستة سنوات كاملة، ثم تركتها مغادرا محطما لتلك المضغة
التي تسكنها تاركا إيّاها في خذلان كبير.

_أيمكن أن يغفر الله الخطايا التي ارتكبتها في حق نفسي وحق الآخرين. هل سيفعل؟

لحقتني الخالة للرواق وهي تنادي:

-جاسم، جاسم...

التفت وكلي خوف ووجل من أن تفتاحني في موضوع هيام ثانية، أتهرب من كل ما يتعلق بها، لم يكن بمقدوري أن أخبر الحقيقة لأحد غيرك أنت، فأنت جزء من قلبي وقطعة من روحي، أنت أمانى وملاذى فاحتضنني أرجوك...

_أنا نسيت هيام، بقيت تلك الذكريات اللعينة فقط فرجاء يا نارديني لا تحاسبيني بماض مضى، أرجوك عيشي معي مستقبلي وحاضري فقط.

ثم أردفت الخالة:

-بني... أظني قد أساعدك بطريقة ما في هذا الأمر، وأتمنى أن يكون ما فعله صائباً.

فمدت يدها بدفتر ذي لون وردي كتب عليه بالبند العريض "ملخصاتي"

ثم قالت مواصلة لحديثها:

-تفضل، لقد نسيت الأنسة كرايدن دفترها قبل أيام ولم تأتِ هي لاستعادته لذا قم بإعادته لها، ستجدها كالعادة في المكتبة العامّة.

_ "المكتبة" استغربت فلم يسبق لي قط أن وطأت قدماي هذا المكان، كان هذا بمثابة مؤشر لي أن الفتاة التي سأتعامل معها هي فتاة قارئة تهوى الكتب وتنفس الكلمات فتظل مغامرةً متنقلةً من مكان لآخر في عالم من خيال والروايات غير المنطقية، رصيد ثقافي كبير بإمكانها أن تقرأ السطور من عيني دون حاجة لي بالكلام فالصمت معها بحدّ ذاته كلام.

_حُبُّكَ هو الذي كان أثقل من أن يتحمّله قلبي.

_قلبي الشبيه بفندق خمسة نجوم والذي اعتاد على استضافة الحمقاوات الجاهلات اللواتي كل همومهن مشاهدة فيديوهات الأنستغرام أو التفرج على مسلسل تركي رومانسي كاذب أو حضور صالونات التجميل لهرجة أنفسهن وكل أماكن تشمل إما الشاطئ أو قاعات الحفلات، لطالما رحب قلبي بفتيات لم يسبق لهن أن حملن بيدهن كتابا أو حتى دفترا لذا فأنت ضيفة شرف هذا الفندق الذي أصبح ملكا لك وحدك ويحق لك التجول فيه كما تشائين، فأنت من أبهرتني بيديك الملطّختان دوما بجبر أسود عليهما وحقيبة ظهرك المليئة بالكتب والتي تحملينها معك دوما أينما ذهبت فهي بمثابة قارورة أكسجين لك، عشقتك بنظاراتك التي تزاول عيناك بسبب تعبهما وإهاكهما من القراءة، همت أنا في تفاصيلك لأنك مختلفة عن الجميع.

_لأنّك مميّزة.

_كلّما حاولت أن أقارنك مع أقرانك من الفتيات تردّدين على مسامعي:

-أنا لست هنّ وهنّ لسنّ أنا، فلا مجال للمقارنة بيننا.

_وكيّ يقين بأنّ كلّ حرف يتفوّه به ثغرك اللازوردي صادق، فأنت كاللؤلؤة في محارثها صعبة الكسر، أنت لؤلؤتي أنا وحسب، لؤلؤتي التي خطفت منّي بصري وبصيرتي.

_ قاطع شرود ذهني وأفكاري المسترسلة وإبحاري في عالم من خيال رفقتك أمينة المكتبة حدثتني بصوت لم أفهم ما هي نبرته:

-بطاقة اشتراكك يا سيّد.

تاھت الحروف اللّعيّنة في حنجرتي، فتنهدت ثم نبست بما ورد في عقلي من أفكار مبعثرة بصوت يرتجف محاولاً بكلّ جهدي تركيب جملة مفيدة وكأنني طفلاً زال يتعلّم نطق الكلمات .

_ آه كم هو صعب حبُّك وكم يكلفني الكثير حتّى أتحمّله.

-لا، لست بمشترك هنا فقط أردت أن أعيد هذا الدّفتر للأنسة كرايدن.

فقالّت الأمينة:

-آ.. حسنا يبدو أنك أحد أصدقاءها ستجدها في الطابق العلوي بالزاوية في جهة اليمين بجانب النافذة أرجو ألا تزعجها فهي الآن في قمة صفاء ذهنها.

_ أدركت من كلام تلك الأمينة أن حب الكتب يجري في عروقك، عنصر في دمك كالكريات الدموية البيضاء والحمراء وربّما البلازما، ويعيش في قلبك قرب وريدك.

-صعدت الطابق الثالث وكليّ توتر من ردّة فعلك وزادتني سكينه المكان توترا عن توتري، آه كم هو صعب أن نخاف من المجهول، أن نفكّر فيما سيحدث وخاصة إن

كان ردّة فعل أحبائنا، كيف وكيف؟ وكيف؟ مجموعة أسئلة لا تنتهي تهش الروح قبل العقل وتتعب القلب قبل الخلايا العصبية.

_آه، كم هو صعب من أن نخاف مما نجهل فلا يمكننا التقدم ولا يمكننا التراجع فلا جرأة لدينا للسير للأمام ولا قدرة لدينا للرجوع للخلف فنبقى عالقين في المنتصف بين أسئلتنا التي لا تنتهي، نفسّر ذلك الأمر على هذا النحو ثم يخبرك صوت لعين بداخلك بأن ما تعتقده خاطئ، آه كم هو صعب أن تضيع بينما تراه وتسمعه فلا أنت قادر على تصديق ما رأيته أو ما سمعته.

_هل يمكنك أن تعقي في حيي يا ترى؟ أن تحبيني وتضعيني في قلبك بجوار كتبك ورواياتك؟

-هاجمتي تلك الأسئلة اللعينة دفعة واحدة.

_لمحتك منتشية تقرئين كتابا تحملينه بين أناملك الصغيرة، وأكثر شيء لفتني فيك هو عدم وضعك للإكسسوارات وبهجة نفسك بها فقط ساعة ذهبية تحيط معصمك الأيسر تظهر أنك أنثى راقية، تقدرين قيمة الوقت وتثمينينه مع أحبائك، راقنتي فكرة أنه لا عقد يحيط برقبتك وهذا دليل على أنك حرّة فخلف كل عقد يحيط برقبة فتاة قصّة لا تعلمها إلا هي.

-شدّ انتباهي عنوان الكتاب الذي كنت تطالعينه "مدينة الحبّ لا يسكنها العقلاء"، تساءلت حينها: هل يمكن أن يكون لك معرفة بالحبّ يا ترى؟

_اقتربت منك وأنا أموت في كل ثانية، اللعنة كنت في حالة تيه عظيمة.

_ أَلْقَيْتِ السَّلَامَ عَلَيْكَ فَلَمْ تَرُدِّيْهَا وَكَأَنَّكَ مَنْمَسَمَة فِي عَالَمٍ آخَرَ، غَادَرْتِ رُوحَكَ وَبَقِيَ جَسَدُكَ هُنَا.

_ هَذَا مَا كُنْتِ تَرُدِّدِيْنَهُ عَلَيَّ مَسَامِعِي دَوْمًا عِنْدَمَا كُنْتِ أَسْتَشِيرِيْكَ فِي أَمْرِ مَا وَأَنْتِ مَنْمَسَمَة فِي كِتَابٍ:

- جَاسِمٌ أَشْكُرُكَ لِتَفْهَمُكَ وَلَكِنِّي عِنْدَمَا أَقْرَأُ أَيَّ كِتَابٍ فَإِنَّ كَلَامًا مِنْ رُوحِي وَقَلْبِي وَعَقْلِي يَغَادِرُونَ فِي تَفَاصِيلِ ذَلِكَ الْكِتَابِ، فَأَنَا أَقْرَأُ مَا بَيْنَ السُّطُورِ وَأَعِيشُ قِصَّةَ الرِّوَايَةِ بِكُلِّ أَحْدَاثِهَا، أَبْكِي، أَضْحِكُ وَحَتَّى أَفْرَحُ وَأَحْزَنُ...

_ وَكَمْ كُنْتِ أَسْتَعْرَبُ مِنْ حَالَتِكَ تِلْكَ، هَلْ يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ يَا تَرَى أَنْ يَتَأَثَّرَ بِكِتَابٍ مَا؟ وَلَكِنِّي الْآنَ أَدْرِكُ أَنَّ الْكِتَابَ هُوَ خَيْرٌ حَبِيبٌ وَصَدِيقٌ وَجَلِيسٌ فِي الْوَحْدَةِ، يَحْوِي إِجَابَاتٍ أَسْئَلْتُنَا وَيُسَاعِدُنَا فِي الْوَصُولِ إِلَى الْحَقِيقَةِ.

_ أَشْكُرُكَ يَا نَارِدِيْنِي لِأَنَّكَ عَرَفْتَنِي عَلَيَّ صَدِيقٌ حَقِيقِي، صَدِيقٌ لَا يَخْدَعُ وَلَا يَخُونُ، صَدِيقٌ يُمْكِنُهُ أَنْ يَكُونَ لَكَ فِي قَرْحِكَ ضَمَادًا مَطْهَرًا لِجِرَاحِكَ وَمَشَارِكًا إِيَّاكَ فَرِحْتِكَ، لَكِن بَعْدَكَ أَنْتِ فَأَنْتِ فِي الْمَنْزِلَةِ الْأُولَى دَوْمًا وَأَبَدًا.

-وَأَنَّ قَلْبِي مَدِينَةٌ وَكُلُّ سَكَانِهِ أَنْتِ... أَنَا أَعْشَقُكَ.

-ثُمَّ نَادَيْتِكَ بِصَوْتِ مَسْمُوعٍ:

-يَا أَنْسَةَ، يَا أَنْسَةَ.

أَجَبْتَنِي، وَلَمْ تَرْفَعِي عَيْنِيكَ بَعْدَ عَن كِتَابِكَ ذَلِكَ:

-ماذا تريد؟

ردّدت بصوت متوتّر:

-لقد نسيت دفترك.

اكتفيت برّد شكرًا ثمّ أشرت بسبابتك اليمنى نحو جانب حقيبتك:

-ضعها هناك.

-حاولت أن أخلق حديثًا معك، لم أكن لأرضى أن أغادر وأنت لم تنظري لوجهي حتى، لم أكن لأترك هذه الفرصة تضيع هباءً منثورًا.

فأخذت بالكروسي الخشي المقابل لك وجلست عليه ثم سألتك:

-ماذا تقرئين؟

أجبتني بانزعاج شديد دون أن ترفعي عيناك عن ما تطالعينه:

-مجلةٌ لآخر عارضات الأزياء والموديلات التي أصبحت موضحة هذه الأيام.

تعجّبت من إجابتك، تبعثرت الأفكار داخلي ولم أستطع أن أرتبها، كيف هذا؟ أنا أراك منغمسة في كتاب بعنوان "مدينة الحب لا يسكنها العقلاء" وأنت لتؤكّ تقولين مجلة...

فقلت لك ببلاهة دون أن أزن كلماتي حتى:

أعدت سؤالك الأول بصيغة أقل انفعالا:

-أعتذر، لكن ما الذي أتى بك؟

_خفت من مصارحتك بالحقيقة كاملة فرغبت أن أظهر لك نصفها وحسب،
فأجبتك كطفل يخبر أمه الصراحة على أمل أن لا تعاقبه لقوله الحقيقة المرة.

-زرت الخالة سميث وأثناء مغادرتي طلبت ممي أن أوصل لك دفترك قائلة بأنني
سأجده في المكتبة.

فاكتفيت بقول:

-آ.. شكرا يبدو أنني نسيتته كعادتي، يا لي من متسرعة دائما ما أنسى أشياءي.

وودت حينها لو أقول لك بأن نسيانك لأشياءك هذه كان السبب الرئيسي في
اجتماعنا. أه كم أشكر ذلك الدفتر الوردى اللون لأنه منحني فرصة الحديث معك.

_هدأت الثورة التي كانت متقدمة بداخلي وأرتاح ذاك الطفل لأن أمه لم تعاقبه بل
شكرته على صراحته وعدم كذبه.

فأجبتك ردا على كلمات شكرك:

-عفوا.

فقلت لي:

-ممنونة لك، لقد بحثت عنه في كل مكان.

_كانت تلك الكلمات من أسمى ما سمعت، فو الله وإن همست بحروف من فاهك
كانت كالشمس التي أشرقت بعد عاصفة رعديّة ممطرة فارتسم قوس قزح فوق
السّماء، شمس باهية جميلة وحنونة أيضا كترنيمة تغنيها الأمهات للأطفال، ترنيمة
غيّرت بها نبض قلبي كيف تختارين مفرداتك بهذه الدّقة والرّقة يا نارديني؟ كيف؟

_ليتك تعلمين كيف كان شعوري أن ذاك، أحسست بذلك الطفل الجريح القابع
بداخلي يغرق في بحر من السّعادة، فقد اختار بعد أن كان يلاحق الفراشات في مرج
أخضر أعلى التّلّة التي يكسوها زهر الخزامى أن يلاحق تلك النّحلة التي تجمع رحيق
الأزهار رغم خوفه من لسعها له وإيلامه لكثّنها لم تفعل بل أهدته عسلا حلو الطّعم
ليتنذوقه، أنت هي نحلي.

_نظرت نحوي بغرابة وتطلّلت:

-غريب!

فسألتك أنا مستفسرا:

-ما هو الغريب؟

فقلت لي بكل عفويّة:

-ظننتك متكبرا متبخترا تخال نفسك إلها أو شيئا لن يعاد ثانية بهذا الكوكب.

أجبتك مدافعا عن نفسي من هذه الصفة التي أنسبتها لي مع أنني أدرك في قرارة نفسي أنني كذلك:

-لست كذلك، أنا فقط لا أتحدث إلا مع من تروقني صفاتها وخصالها.

وضعت كلتا يداك أسفل ذقنك وأسندته على راحتيهما ثم قلت:

-لم أفهم ما معناه هذا... هل رقت لك؟

أجبتك أن ذاك:

-ربّما

وقفت من كرسيك معلنة بذلك أنك ستغادرين ثم حدّقت بي قائلة:

-أغرّتي جرأتك هذه يا جاسم.

_ولو تعلمين كم سعدت بمناداتك لي باسمي دون كنيّتي، ربّما كان سماع اسمي بنغمة صوتك من أجمل المرّات التي سمعته، تمنّيت لو أنك أعدته إلى اللانهاية.

_ليتك تعلمين كيف يقتلني شعور رؤيتك تغادريني وأنا عاجز عن التفوّه بحرف واحد، أرغب بإبقتك أكثر لكن لا قدرة لي على ذلك، مع ذلك فلا بأس فكلمات قليلة ربّما قد تكون كفيّلة في فتح شغاف قلبك لي.

_ حاولت فيما بعد أن أتواجد كثيرا في الأماكن الهادئة، وتكرهين كل ما هو فوضوي ومزدحم أنا عكسك... عكسك تماما.

_ كنت قد وضعت ذات مساء قصة في حسابك لم أستطع منع فضولي من رؤيتها والاطلاع على محتواها، كان بإمكانني أن أفعل الوضع المتخفي لكفي أردت أن تعلني بأنني اطلعت عليها، كانت صورة لك مع شخص ربّما هو بمثل عمري أو أكبر ممّي بقليل، اعتقدت أنّه حبيبك لا بل كنت جازما يقينا أنه كذلك فهو نفس الشخص الذي يعلّق لك على منشوراته ونفسه الذي لمحتة يوصلك كلّ مرّة إلى الجامعة.

_ من هذا؟ لمّ أحببته؟ ما المميز فيه حتى أغرمت به هو وليس أنا بحق السماء؟ هل أغراك شعره الأشقر أم عيناه الزرقاوتان؟ أحسست حينها بشعور الخيانة، بدا الصوت اللعين داخلي يخبرني بأنك خائنة كاذبة لعوب لكنك لست كذلك، حتى إنّ الشيء الوحيد الذي كان يجمع بيننا هو كلامنا في المكتبة، لكن شعور الغيرة أعنى لي بصيرتي، احمرّت عيناى وغضبت فبدأت بكسر كل ما هو حولي ولم أهدأ حتّى سال الدّم من يدي المجروحة بقطع الزجاج، كسّرت المرايا، الثريات، نزعت الستار وكسرت كوب الماء، لم أكن لأحتمل أن أراك لغيري.

_ يؤلمني قلبي حينما أتخيّل أنّه ربّما سيأخذك غيري، سينعم بضحكتك، بابتسامتك وحديتك، مجرد التفكير في الأمر يجعلني أفقد عقلي وأجنّ، فكيف حالي وهو الآن أمامي واقع؟

_ آه وكم تحبين الفلسفة يا عزيزتي.

أجبتك بلهفة طفل ينتظر من أمه أن ترضعه مع أنني من أولئك الذين يتجاهلون الرسائل ويجيبون عنها بعد ستّة أو سبعة ساعات إلا أن هذه الطريقة لا تجدي نفعا معك.

_ فإن جاراك أحدهم في فن التجاهل علّمته التجاهل بأصوله من على جذوره.

-حسنا فهمت، أعتذر يبدو أنني أسأت الظن.

_ لبيتك تعلمين كم أراحي أن ذاك الشخص ليس بحبيبيك.

-من أين لك بحسابي؟

فأجبتك مترددا:

-من مصادر المتعدّدة.

سخرت أنت من إجابتي ثم قلت لي:

-وهل دفعت لهم مقابل هذه المعلومة.

أضحكتني إجابتك بقدر ما استفرّجتني فأجبتك:

-الصدّاقة ليست بثمن، فالأصدقاء الحقيقيون يقدمون لأصدقائهم خدمات دون مقابل.

فكبت لي:

-أمم، الصداقة إذن.

ثم أضفت:

-ألك حاجة عندي؟

-ناردين... ما معنى اسمك؟

فأجبتي للمرة:

-فضولي أنت على ما يبدو، حسنا معنى اسمي هي نبتة تستعمل للعلاج من الأمراض
تدعى ناردين.

_فأدركت حينها أنك نبتة علاجي.

وكتبت لك بعدها شيئاً تافها لا أزال أضحك كلما تذكّرته:

-ناردين أروق لك؟

فأجبتي ب:

-ربّما.

فكبت لك أنا ملي:

-لكنك تروقين لي.

وواصلت كتابة رسالة نسجتها شراييني وأوردة قلبي.

-ناردين... هل لنا نصبة واحدة؟

قرأتها ولكن جوابك طال، فأدركت أن الحروف تحللت في حنجرتك حرفا حرفا واستحالت إلى رماد، فصار جوفك خال من الكلمات، لم تنفعك حينها لا تعابيرك ولا كتابتك ولا حتى الكتب التي قرأتها، حلقك كان فارغا من الكلام تماما أو ربّما قلبك.

لكن يا ناردين

وإذا عشق الفتى فماذا العشق بقلبه يصنع

أيداري غرامه وبفن التجاهل يبدع؟

ويترك الهوى يفتك به ولرصاصة الحب يخضع

كيف له أن يعيش وفي كل يوم قلبه من العشق يتقطع

فإذا كان منال حبه بعيدا فالموت له أرحم وأنفع.

فكتبت لي وكم أدتني وجرحت مشاعري ذلك الحرف الذي نبست به "حرف اللام"

-لا.

لكنني طلبت منك التفكير مليا في الأمر، فوافقت دون إطالة للحديث وأخذته لمجرى آخر.

-اتصلت بعدها بك بعد أسبوع تقريبا، في الأول لم تتعرفني على صوتي فأخبرتني بأنني أنا "جاسم" ذاك الذي يهواك ويعشقتك ويرغب بتجربة فريدة من الحب معك. كان ذاك اليوم السادس من جانفي، يوم بارد متجمد يشبه برود قلبك المتجمد الذي يجارى في ذلك القطب الشمالي المتجمد، فكانت إجابتك للمرة الثانية:

-جاسم.. لم أخذ وقتا كفاية للتفكير في الأمر، ولكنني لن أقبل بأن تكون علاقتي بك عابرة فأنا لست للتسلية حتى تمضي وقت فراغك بي، أنا أرغب بعلاقة جادة.

حلفت لك يمينا بأنني أحبك وأنوبك حلالا.

فكان ردك على كلامي:

-أثبتت، حينما أراك جاهدا تحاول أن تشعرني بحبك وتجعلني أشعر بسعادة غامرة بقربك حينها فقط سأرتبط بك.

وبدأت بعدها جاهدا لأثبت لك أنني أحبك وأهواك، فحاولت أن ألفت انتباهك وأغرقت برسائلي الوردية وورودي البيضاء كما لو كان حبنا من الطراز القديم كما حلمت به أنت دوما حبا من عصر مضى، عصر الرقة والأمان، أن يكون حبا مميزا غير عصري البتة، عرفت كل ما يعينك وما يهتك وما تحببته: نوع الكتب التي تقرئينها، مشروبك المفضل، أي المجالات تهتمين بها، ماذا تعلمين عن الفن والأدب

والعلوم والسياسة وغيرها وكنت أسعى جاهدا لأجمع كل المعلومات التي تخصك حتى أنالك.

_أرسلت لك مساء ذات يوم ربيعي لطيف الجو لكن قلبي كان لا يزال مثلجاً، كنت في قمّة إرهابي، أبكتني هذه الدنيا ألماً يا نارديني، أردت منك إجابة واحدة على تساؤلي، لم أكن في حلة تسمح لي بالتحدث أكثر وإطالة النقاش، تقتليني هكذا بخوفك هذا من أن أؤذيك، تؤذيني برفضك الدائم لي، يقتلني هذا وينتزع عني بهجة أيّامي، فأجبتني برسالة حفظت حروفها عن ظهر قلب وكانت كالتالي:
إلى أفينوس.

"تدسكب أحرفي من قلبي لعلّها تغرق قارئها بعبق ما أشعر به، بهيامي به... أستغرب كيف لإنسان متلبد المشاعر أن يعشق وبمثل هذه القوّة، أهذا تأثير العشق على النفوس؟

يا أوّل واطئ لهذه الأرض الجرداء المعشّشة في هذا الفؤاد مرحباً بك، مرحباً بكلّ حرف أقصده.

مرحباً بميم المحبّة والمودّة.

مرحباً براء ربح دافئة علييلة النسّمات حانية على خصلات شعري تعبت بها، ربح بشرّتي بها أنت يا بشيري، فباءك حب يروي القلوب وشينك شين شرياني، شتائي وشتاتي، شاطئي وشمسي، شغفي وشمعتي التي تضيء عتمة حياتي، وباءك يومي ويقيني، يوسفي وياقوتي، يبّي ويمامة قلبي وراءك روجي وريحاني ورجفة قلبي

وانتفاضته حين رؤيتك، ربيعي ورونقي ورايتي، راء سكنت وريدي، وباءك الأخيرة
بإاء التملك فأنت ملك لي وحدي.

-مرحبا بحاء الحب الذي يولد العشق، حاء الحبيب والحكواتي، حاء الحلم الجميل
الزاهر، حاء حريتي وحظي الجميل، حاءك يا حامل البشرى والبشائر.

-مرحبا بباء البسمة والبشاشة، باء البيت والبلدة، البراءة والبصر، مرحبا بباء
بحاري وبثنيتي.

-مرحبا بألف الاستقامة التي اعتدلت احتراماً لك، مرحبا بألف الأمانى والأمنيات،
ألف الأسرار والأنغام وأنوار حياتي.

-يا ألف مرحبا بك يا أفينوس، يا نجبي اللامع، فَمُرْ حُبًّا

-عجبا كيف للفؤاد أن يضح كل هذا الكم من الحب لشخص واحد، يا من هواه
غلبني وحباله وصاله شدت حبال قلبي، يا صاحب الشامة البنية فوق شفته من
الجانب الأيمن فيا ترى من أي المجزات سرقت؟

يا صاحب شطبه الحاجب الأيمن، يا من شعره أسود عاصف كشعر حصان عربي
أصيل يكابر ولا يرضى الهوان، يا من تملك عينان غائمتان تشبهان الغيوم الرمادية
الملبدة في دفتها، عينان أستشعر فيهما دفاء الغيوم تلك التي لطالما ظننتها في صغري
ديناصورات تبحرت ثم تكاثفت لتصبح سحابا فكنت أظل صباح مساء أحادثها ظناً
متي أنها تسمعني وستحقق لي مطالبي، وأرى أن عينيك حقا فعلت ففهما وجدت
مبتغاي "ملاذ آمن"، عيناك ليل من الأسرار والمعاني المسكوبة في روحي.

-لا أريد أن أكون سنو وايت وتكون فارسي ذو الحصان الأبيض، ولا أريد أن أكون سندريلا فتتقذني من زوجة أبي الشريرة ولست بالجميلة لتكون أنت الوحش، مع أنك ستشتري لي مكتبة فهذا مهري في الأخير، لا رغبة لي بأن نعيش الحَب الأزلي فلا شيء مؤيد لأن الحياة بحد ذاتها مؤقتة.

-لنخلق لأنفسنا قصة حب جديدة يكتب عنها التاريخ في سطور من ذهب بحروف من ألماس لتقرأها الأجيال القادمة، ولنكن عبرة للعابرين في نفق الحَب ولنكن قدوة للمغامرين في دهاليزه...

-لا أريد أن يكون ما بيننا مجرد شعور ويمضي، أريد أن ينتابنا نفس الشعور، أن يبني حُبنا على الثقة فلا شيء أفضل من أن تكون الثقة هي التي تربط بين عاشقين وتغلب حُبهما، ولتعلم يا أفينوس أنني لست كأقراني فأنتي مثلي لا تحبُّ أن يعيشها أحد بطريقة عادية لأنني مجنونة بطريقة مميّزة لذا أطربني بغزلك وأشعارك وقصائدك بليغة اللغة فصيحة المعاني، فكن نزاري الكلمات، يوسفي الأشعار وكاطفي الألحان، مثل شخصيات رواياتي الخيالية المفضّلة فاجعلها واقعا أمام مرآي. وضع نصب عينيك أنني لست هنا لأنني قائمة علاقاتك وحسب بل أنا هنا لأحرق القائمة ومن علمها. واعلم أنه في قانوني إن أردت مني أن أحبك فوجب عليك أن تكره كل النساء الأخريات.

-أريد أن تربت علي بيد حانية كأفئدة الطير وعذبة كماء النيل تمسح عني ألمي وحزني، أريد أن أتدفأ بقلبك من برد الشتاء.

وأتمنى لضحكاتنا أن لا تبلى ولذكرياتنا أن لا تنسى.

لن أعدك بالسعادة يا أفينوس ولكنني سأحاول أن أجعلك مبتهجا دوماً، وأعدك بشيء طالما أننا يدانا متشابكان مع بعضهما البعض... أعدك بأن أكون مخلصاً لك.

-آه كم هو غريب، أنا التي كنت من الغرام ساخرة أراني في تفاصيل ملامحك كالمنجونة هائمة وفي يَمِّ عيناك السودوان غارقة، فامحي خريفي وآتي بربيعي ولنكن من نفهم بعضنا من سكوتنا قبل كلامنا وليكن الدُعاء وصيَّة بيننا، ولنمارس لغات الحُب الطاهرة كلَّها.

-واعلم أنّي أنثى وضعت للغرور قانون فلا تحاول خرقه حتّى لا يصيبك كبريائي بالجنون. وإنّي كالبحر أبدو عادية من بعيد ولكيّ أعمق بكثير ممّا قد تتخيل أو تتصوّر فإن كنت لا تجيد السباحة فلا تقترب وتخطّر فيغرقك غرامي ولا ينقذك منه أحد، ابق على الشاطئ تتأملي من بعيد فأنا أنثى لا يقدر على حبّها إلّا رجل شجاع عنيد.

-ولنجعل حبّنا يا أفينوس حب روح فلغة الرُّوح لا تخطئ وذاكرة الرُّوح لا تنسى وإنّ الروح تأنس من يلاطفها لا يطفئها فأنسني يا أنيسي ليضيء بريق كل ممّا وسكن أفندتنا وترتاح.

-واجعلني أغفو على صدرك وليكن لقاءنا أبدياً لا فراق بعده كلقاء نسّمات النّدى التي تصافح أوراق الشّجر في كل صباح يوم مشرق جميل.

-لنتعاشق في عالم الغرام دون أن نسأل عن أحوالنا فحال قلبي من حال قلبك، فكن بخير لأكون أنا بخير، وكن ضماداً لي ولا تكن جرحاً، وداوي الندوب الغائرة في

عمق دهاليز هذا القلب، وأنتي لست كغيري من الفتيات أمنح قلبي لمن هبّ ودب
إنّما أنا أحتفظ بهذه المضغة الطاهرة لرجل نزيه يمكن أن أتق به وليس لذكر
محتال كذّاب، فأنا أريد ذلك الذي يطالب بي وسط الرّحام والرّحمة، يختارني أنا
عن غيري ويميّزني عنهنّ فلا يعاملني كما يعاملهن وأراك كذلك فأتمنى أن لا يخيب
ظنّي وأن لا يخونني حدسي.

أتمنى أن يكون قراري صائبا بسماحي لك باكتشاف الكنوز التي بداخلي وتفجير قدرة
العطاء التي أملكها.

-ولا أريد يا نجبي الساطع أن تحبّي لمجرد أن ضحكتي تغريك وثيابي تعجبك وكلامي
يروقك أو حتى لأن وجهي جميل، أريد أن أتذوق طعم حبك لعيوبي التي أتجنّب
إظهارها، أريدك أن تجعلني أشعر بأريحيّتي في جعلها مرئية أمام ناظريك، بأن تحب
خوفي الذي لا يطيقه أحد ومزاجيتي التي تعكر مزاج الجميع، أريد أن أريك جانبي
المظلم لتضع به نجوما، أريد أن تصحح أخطائي ولو أخطأت ألف مرّة أن تكون رجل
لا أن تهرب كالأطفال، فتقول لي "تعالى لنصلح هذا الأمر يا نارديني" أن لا تترك
علاقتنا تهدم وتترك قلوبنا مشتعلة لأنه بإمكاننا إنقاذ عدّة مشاعر عند إطفاء
الحريق وهو مشتعل لكنه لا يمكننا أن ننقذ شيئا من مشاعرنا إن تركنا النّار تخمد
لوحدها لأنّها ستأكل كلّ شيء وستغدو مشاعرنا رمادا، فهل للرماد شعور؟

-ولا تعتبر الحب لعبة فتتخلى عني في منتصف الطريق بعد أن نرتفع ونوشك
الوصول إلى القمة فتفلت يدي وتتركني أسقط بعد أن تكسر جناحي وتمنعني من
التّحليق فتتركني بعدها إمّا لغريب فيجبرني بعدك وأنساك ولأقدار الحياة تعصف

أصبحت أنت حينها فردوسي وجنّتي التي سأسكنها وأرتاح فيها من عبء الحياة
وصعوبتها.

-فكتبت لك:

-إذن اكتبني باب قلبي مغلق فبداخل ما وراءه أمير نائم على سرير ناعم من زهور
الأقحوان الزاهية زكيّة الرائحة، إنّه أميري النائم ذلك الذي أتاني بكتب وروايات لا
بحصان أبيض.

وأضفت بعد أن لاحظت ما فعلت:

-أقصد أنّه إذا أحببت أن تكتبي، نسيت للتوّ أنك فتاة تكرهين الأوامر ولا تقبلينها.

-وأصبحنا عاشقين متعاشقين في بساتين الحُب والغرام.

في الفضاء فتجعلك تعرف معنى الحرية وأنها في جناحين تجوب الفضاء غير آبه بالمخاطر والعواصف التي ستقابلها، كم أغبط الطيور لأنها تجوب أعالي السماء غير مهتمة أو قلقة تعيش حاضرها وحسب، سأكون روميو لأجلك، أستنشق غبار متاعب الحياة لأنعم في الأخير بسحر نظراتك وابتسامتك، ليتني كنت نوبي ليأتي درايمون كل ليلة يأخذني ببوصلة الزمن للمستقبل أشاهد ليلة عرسنا ترتدين أنت فستانا أسودا وأنا ببديلة بيضاء، أدرك أن جميع من قد سيمر على مسامعه هذا السطر سيتغرب فلا أظن أنه سبق لعروس أن فعلت هذا، لهذا أقول أنك استثنائية، لا زلت أتذكر أنه في الرابع عشر من فبراير يوم عيد الحب العالمي ارتدى الجميع اللون الأحمر إلا أنت كنت باللون الأخضر وشبهتك حينها بالشجرة التي تنمو وسط الزهور الخضراء قدمت لك سلسلة كتب كهديّة بمناسبة هذا اليوم، انتظرت منك أن تعايديني كذلك لكنك لم تفعلي فطرحت استفسارا عليك:

-ما اليوم؟

-إنه اليوم الذي يلي عيد ميلادك الثالث عشر من فبراير بالمناسبة أراقت لك هديتك؟

-أجل، أحببتها شكرا.

-إذن، لم تتذكري هذه المناسبة؟

-أي مناسبة تقصد؟

-سأصاب بجلطة، أليس اليوم هو عيد الحب أم أنني لا أعني لك شيئاً لتتذكرني مناسبة كهذه؟

-جاسم أجل اليوم هو عيد الحب بالنسبة لحبيبين كانا في عصر مضى وظل هذا اليوم متداولاً بالنسبة للناس، ولكن لمَ قد احتفل بعيد حبهما؟ أنا أحتفل بعيد حبي الخاص.

-عيد حبك الخاص؟

-أجل.

-ومن تحيين؟

أتذكر أنني ابتسمت حينها بابتسامة مكسورة خوفاً من أن تلفظي اسم غيري

-أنا أحب من ابتسم، واحتفل بيوم وقوعي في حبه.

-حقاً وما هو تاريخه؟

-الخامس والعشرون من مايو

-غريبة أنت.

-لست غريبة إنما أنا من أكوّن ذاتي، لست مضطرة إلى أن أكون من قوم تبع وأتبع الموضة والمشاهير ولا أدري ماذا أيضاً.

سرت أنا بخطوات متناقلة فوق البساط الأخضر أفرغ بذلك طاقتي السلبية، كان الجو باردا قليلا فأحضرت لك قميصا قطنيا أبيض اللون طبع عليه نصف قلب بينما كنت أرتدي أنا القميص الأسود المكمل لذلك القلب، استلقت بجوارك وأسندت رأسي بكلتا ذراعي فرحت تارة أتأمل النجوم وتارة أتأملك، شدتني كثيرا تلك النجوم اللامعة في تلك الليلة والتي وراء كل واحدة منها قصة، تلك النجوم التي لطالما سمعتني وأنا أروي لها عنك، فبكل نجمة لك رسالة وفضفضة، عجيب الليل وكأنه تارة يكون صديقا حميما للإنسان فينقلب دون سابق إنذار ليصير عدوا لدودا له فيأتي ليذكرنا بأحباتنا يحيي المشاعر بداخلنا فيجعلها كالنار المتأججة بقلوبنا.

-كنت أتأمل الأغصان وهي تترنح مع النسيم، ووجه النار يتهلل وهو يمزق الظلام بينما اختفى القمر بين الغيوم مرسلا ضوءا باهتا، كان ليلا بنسمات منعشات ونجوم باسمات وتداعب أذاني الموسيقى بسحرها الهادئ الذي يهدئ من ورع قلب متوحش.

قاطعت جمودي بكلمات أرق من بتلة زهرة:

-أفينوس أتعلم لم أسميتك هكذا؟

فأجبتك

-لا الشيء الوحيد الذي أعلمه هو أن هذا الاسم يميزني عن غيري، لذا فهو يروقي بالرغم من عدم معرفتي بمعناه، لكنني متيقن بأن له معنى ساميا يشبه سموك يا أميرتي.

-حسنا إذن أحكي لك عن معناه.

-يسرني هذا، كحكاية قبل النوم، لم أحنظ بهذا أبدا.

-حسنا إذن كن مستمعا جيدا.

-وكلي أذان صاغية لحضرتك يا ناردين.

أترى القمر؟

-أجل.

-أتلاحظ ذاك النجم اللامع القريب منه؟

-ألاحظه.

-ذاك هو أفينوس أو إن صح التعبير فينوس.

-لما أسميتني على اسم نجم؟

-أنظر سأشرح لك الأمر كالتالي...

فاعتدلت في جلستك وأعدت ربط شعرك وكأنك بذلك تعيدين تشغيل خلايا مخك.

-حسنا لنقل إن هذه السماء حياتي وأن ذاك القمر الذي يتربع على العرش هو أنا
لأنني دائمة الضياء والتفاؤل وأنت ذلك النجم الذي يلمع بالقرب مني ويدعى
فينوس.

-يا لك من مغرورة...

-أليق بأنى مثلي شيء غير الغرور؟

-تحبين نفسك زيادة عن اللزوم أليس كذلك.

-مؤكد أنني أحب نفسي وأفردت في تدليلها فلا سند لي إلا نفسي ولا ملجأ لي إلا نفسي.

-ماذا عني ألسنت لك سندا وملجأ؟

أمسكت بيدك وجنتاي وابتسمت لي:

-مؤكد جاسم أنت سندي ملجأ، ولكن لأصاركح الأولية دوما لنفسي في كل شيء.
أغاظني كلامك جدا مع أنه واقعي، فعلى المرء أن يمنح دوما الأولية لذاته، فأخفيت
ذاك في سري خوفا من أن تحزني أنت الأخرى، ومن يراضيك إذا أخذت من أحد
موقف.

تساءلت حينها:

-ناردين... لم ينسب دائما جمال الأنثى للقمر؟

فأجبتني:

-لأنه حسب قول مصطفى الرافعي في كتابه أوراق الورد أنّ القمر تحت الليل يعبر عن نفسه تعبيرا نساءيا في منتهى الرقة لأنه قوي شديد في غاية الدلال، في كمال الإغراء وفي أقصى الحياء لأنه يبعث بهذا الحياة فيما حوله أقصى الجراءة.

فتساءلت حينها للمرة الثانية:

-ألا زال للقصة بقية أم أنها انتهت؟

فأجبتني كذلك أنت للمرة الثانية:

مؤكد أنها لم تنته، تدرك جيدا أنني أحب التعمق في الأشياء فما نفع أن تبقى على الشاطئ فوق ألسنة الرمل تتأمل البحر من بعيد؟ ما نفع عدم التعمق في الأمور ورؤيتها سطحية؟

سأواصل قصتي وأرجو منك عدم المقاطعة.

-تقول الأسطورة أنّ النجم فينوس يحب القمر ويعشقه لهذا يحاول جاهدا دوما البقاء على مقربة منه ولامعا بشكل مختلف عن النجوم الآخرين أي مميز عنهم.

لم أستطع أن لا أعلق فقاطعتك:

-هل هذا يعني أنني مميز؟

يكون أثناء ذلك يدور في مدار قريب من القمر لكن لا أظنك تعرف ما سر تسميته هكذا:

-قديمًا في عهد الرومان كانت لديهم آلهة تدعى فينوس وهي آلهة الحب والجمال والرخاء والنصر.

-أحبت المدعوة فينوس رجالا فاتن الجمال يسمى أدونيس، وقد بدأت قصة حبها له في يوم من الأيام حينما كانت فينوس تعبت بسهام ابنها كيوبد، فخدشت نفسها بسهم من تلك السهام وقيل أن تقتلع السهم من عروقتها أبصرت أدونيس وفي الحال وقعت بحبه وتغلغل عشقه إلى أعماق قلبها.

-فأهملت فينوس كثيرة العلاقات الغرامية كل هذه الأخيرة وما عادت ترى إلا أدونيس ذلك الممنوع الصعب، ورغم جمال أدونيس ومدى شعبيته إلا أنه كان يتصف بأخلاق الرجولة وكانت له حياة يركز عليها فأولع بالصيد أكثر من أي شيء آخر وكان دائم المغامرات الخطرة، ولأن بهجة فينوس صارت ترتبط بأدونيس فقد رافقته أينما ذهب، وكانا يجولان معا وسط الغابات يوميا، فما عادت فينوس تهتم لأناقتها وزينتها وما عادت تقضي ساعات على إبراز سر جمالها، بل كانت تذهب معه بثياب عادية تحمل قوسا وجعبة سهام، فعلمها هو الأخير مطاردة الغزلان وأخذ هو يصيد الذئب والفهود والدببة والخنازير البرية.

-حذرت فينوس أدونيس من أن يكون كثير الجرأة فيكون فريسة سهلة لأحد الحيوانات المتوحشة، لكنه لم يعر لكلامها بالا فقد ظلت تلك الروح المتمردة بداخله تدفعه دوما نحو المخاطر وكما يقال في التهور الندامة، هاجمه ذات مرة

خزير بري وافترسه وبالتأكيد حزنت فينوس حزنا مريرا على فراقه وبكته بكاء مرا، وقيل أن زهور الأقحوان نبئت من دمه فنسبوا إلى البراءة والطيبة والجمال وكذا الرقة، ويقال كذلك أن الإله جيوبي تر أشفق على حال ابنته فينوس فسمح لأدونيس بأن يصعد للعالم السفلي لمدة ستة أشهر كل سنة حتى يعيش مع فينوس واعتبرت هذه الأشهر الستة فصلا الربيع والصيف، وإذا عدنا لسؤالك السابق عن سبب تسمية الكوكب بألهة فلأن معنى الزهرة عند العرب تعني الحسن والبياض وقد كانت فينوس حسناء وبيضاء فاتنة الجمال.

-واو، ما هذا أيتها الفيلسوفة ناردين؟

سرقت لب عقلي حتى الأحداث مترابطة ببعضها البعض بسلاسة. إن مثلنا كما تقولين أن فينوس هو أنا مع أنه من العيب أن تشبهيني بامرأة لكن لا بأس فأنا جميل ومحبوب وعلاوة على ذلك متعدد العلاقات، يعني قبل أن أعرفك لكنني مذ رأيتك فتنت بك ومنذ أن التقيتك جعلت لي ثيابا عادية وقوس وسهام فثيابي هي العفوية والصراحة أما عن قوسي وأسهمي فهي سهام الحب والطيبة والرقة وأنت تمثلين أدونيس لأنك متمردة ومغامرة وطموحة وغير آبهة بالآخرين، كما أنك تفوحين برائحة الأقحوان حتى إنني أشك أنك إن جرحت سيخرج من دمك زهور الأقحوان.

ثم استفسرت:

-ناردين كيف تنتقين الأسماء بهذه الدقة والرقة؟

فأجبتني بكل غرور:

-لا أعلم، لكن تعمقي في الأمور وعدم أخذها ببساطة يجعلني هكذا.

-أخاف عليك من أن يفتك بك هذا التفكير والتعمق ويؤذيك.

-لا تقلق لا أظنه يفعل.

_أنت فريدة من نوعك حقا يا نارديني، أتعلمين أحيانا أغار من تفردك هذا.

فقلت لك:

-ناردين أظنك ستكونين كابتن طائرة موهوبة جدا وعلاوة على ذلك كاتبة روايات مشهورة بفضل طريقة إلقاءك والخيال الواسع الذي تملكينه.

-حقا!

وشكرا على كلامك هذا رفع من معنوياتي.

-أنت أساسا معنوياتك مرتفعة إلى أين سترتفع أكثر.

-يا لك من غليظ الطباع.

-أجل، لكن حقا أرغب بأن أراك كابتن تجويين الأعالي والسماء.

-أجل فلا يليق بي غير العلو والسمو، أرغب بأن أطيّر وأكون حرة، ألا يكون لأحد القدرة على أن يكسر جناحي أخلق عاليا كالنسر يجوب أعالي الجبال يصعب الوصول إليه، أرغب أن أبسط جناحي للريح ولا أفكر في أي شيء فقط أترك نفسي لها تعبت بي كما شئت، بودي حقا ملامسة الغيوم البيضاء أمر من خلالها أتأمل صفاءها وبياضها، لن ألوثها فقط سأمسك بكتلة منها بين يدي وأرحب بها كما كنت أفعل كل صباح عندما كنت في الخامسة.

قاطعتك حينها:

-ظنا منك أنها ديناصورات.

-كنت بريئة، لم يكن عقلي الصغير ليتحمل فكرة أن تلك الكائنات الضخمة تتحلل، لم يخطر ببالي غير فكرة أنها تبخرت وصارت غيوما بيضاء تراقبنا فكنت أحدثها وأفضض لها ظنا مني أنها تساعدني دوما أراها معجزات، فسبحان خالق هذه الأكوان.

-يا لك من مغرورة.

-بل واثقة من نفسها.

-واضح ذلك يا ذات الكاريزما العالية، وهيج حبك لنفسك يجاري وهيج القمر وسطوع نوره.

-صمت كل منا برهة من الزمن، غصنا في أفكارنا وخيالاتنا، يفكر في تلك الأهداف التي وضعها لنفسه وكافح من أجلها، يتذكر طعم مرارة خيباته وأجمل لحظاته.

_أعلمين يا نارديني حتى السكوت بين العاشقين لغة في الهوى بمنظور خاص ففي العشق تحسب حرقاة الأنفس حتى.

_هبت ريح جعلت عشب ذاك المرج يرقص بحركة توافق أنغامها

قطعت حينها بصوتك ذاك الصمت السائد:

-ليتني كنت ريحا يا جاسم.

لم أستطع منع نفسي من الضحك، فانفجرت حتى سالت الدموع من عيني وألمني بطني ثم سألتك حتى تطيرين وتخيفين بصفيرك الأطفال

-يا لك من ثقيل دم.

-لو كنت خفيف دم لكنت حملتني بعيدا أيتها الريح العاتية.

-لم تفهم مقصدي من هذا التشبيه يا أفينوس.

-ما هو مقصدك إذن؟

-إن الريح هي المؤنث الوحيد الحُر.

-ألست حرة.

-بلا إنني حرّة لكن الريح بلا مشاعر أي أنّها لا تحب أحدا.

-لا، الريح تحب وعلاوة على ذلك هي تؤذي محبوبها.

-كيف؟ ومن هو محبوبها؟

-الأشجار... تجعلها ترقص فرحا وتحركها وفق لأنغامها ثم تكسر غصنها وتنزع منها أوراقها وترحل.

-معك حق...

-ابتسمت أنا فظهرت غمازة خدي، تلك الغمازة التي لا تظهر إلا عندما أبتسم من أعماق أعماقي.

فقلّلت لي:

-فينوس... أتمنى أن أراك طبيبا.

فاستفسرت منك مستغربا:

-طبيب... لم؟

_ابتسامتك وحدها كافية لمداواة المرضى دون حاجة لهم بأن يشتروا الدواء، ابتسامتك تسلب لب الجميع، ستنال دعوات العجائز لك بالخير، سيقولون لك بأنك محظوظ وبأن زوجتك ستكون محظوظة فيك ويحبك الأطفال، ستكون

محبوباً من قبل الجميع، فقط عليك أن تبتسم في وجوههم وينسى الجميع وجعهم
وآلامهم مثلما أنسى أنا جميع آلامي بمجرد رؤية ابتسامتك.

حينها قطعت لك وعداً:

-أعدك يا ناردين سأكون طيباً، وأفضل طبيب في هذه الدنيا، سأواسي الجميع
وأساعد المحتاجين فقط ابقي بجانبني فإذا رجعت متعباً من عملي وجدتك سندا
وكتفالي، لكن عليك أن تتعلمي الطبخ فأهم شيء بالنسبة لي هو بطني.

-فجأة انطلقت موسيقى الفالس الثاني من مكبر الصوت الموضوع بالقرب من
الخيام، تلك الموسيقى التي ألفها أندريه ريو فنانك المحبوب سألتك وأنا أذندن مع
أنغام الموسيقى ووقعاتها.

-ناردين... أنرقص؟

-أفضل أن أستمع لها وحسب، لا طاقة لي للرقص خاصة وأنا ببذلة رياضية.

-لكن هذه المقطوعة مذهلة.

-أجل كثيراً، تنتشي الفرد من أحزانه، إنه الفن بأصوله.

-ناردين أتعلمين بأنتي شاعر وفنان أيضاً.

-حقاً، منذ متى؟

-لكن منذ رأيتك ما عدت شاعرا.

-لمّ وما الذي فعلته لك؟

-كلما نويت أن أكتب شعرا وقصائد تتبّه أبيات غزلي في بحور عينيك فلعينيك حديث ثان.

-لا يمكنني أن أنسى فرحتك وبهجتك أن ذاك، لا زالت ملامحك السعيدة التي اتسمت على محياك في ذاكرتي وستبقى سجينتها للأبد.

-أنت التي عزفت يا سيدة الفن والموسيقى بأناملك الصغيرة على أوتار قلبي، أنت كقطعة سكر بين أشياء المرة.

ثم قلت لك:

-ناردين، أريد أن يكون حبنا كخطان متوازيان.

-لمّ، ألا تريد أن نلتقي ونجتمع.

-بلى أريد ذلك، لكن الخطان المتوازيان يسيران بجانب بعضهما وهذا أفضل من أن يتقاطعان في نقطة واحدة ثم يفترقان للأبد.

-وللأسف كنا أنا وأنت كخطان متقاطعان التقينا في نقطة واحدة ثم ابتعدنا للأبد، التقينا في مفترق طرق واخذ كل منا بطريق معاكس.

— انتهى ذلك اليوم المميز ولا زلت أنتظر كل يوم سكون الليل لأراك يا قمري تلمعين
بين النجوم، وأراني بالقرب منك فيبث شعور الاطمئنان بداخلي، وألم تقولي بأني
فينوس أقرب نجم منك وإليك فلمَ تخليت عن حيي ورحلت؟ لمَ؟

6929_ كل شيء يذكرني بك -

_وإنَّك تشمّلين ربوع كل خلية في جسّمي، كل خلية في جسّمي تبجّلك وتهتف باسمك "ناردين" فأنت تترأسين بكل عظمتك قلبي الصغير. وإن محاولة حصرك بين حروف محاولة فاشلة كمحاولة إخفاء الشمس بغربال فلولا وجودك يا نارديني لكانت أحر في يتيمة وكلماتي ثكلى وجملي أرملة تنحب فراق زوجها، بوجودك كلماتي صارت مثل الأمواج تتلاطم ببعضها البعض، فروحك متمردة دوما وأبدا خلقت متمردة وستبقى متمردة فكما تقولين:

-النساء المطيعات يصنعن العشاء لا التاريخ.

-مجنون أنا أتعلمين، مجنون بك يا نارديني، مجنون بعشوائيتك المنظمة وتنظيمك المبعثر، مجنون بتفاصيلك الصغيرة الدقيقة التي تتطلّب عاشقا مجنونا حتّى يدرسها ويدقّقها فإنسان عاقل لا قدرة له على احتمال حبّك.

_جننت أنا بزفتك وعفويتك يا نارديني، مختلفة أنت لدرجة لا تصدّق، أنت قطعة فريدة، زهرة الأدلّفايس النادرة التي تقع أعلى قمم جبال الهيمالايا، تدركين جيدا أنه لن يتسلق هذه الجبال إلا مغامر شجاع أو عاشق ولهان متيم بك وأنا كلاهما، أسير أنا محاولا أن أعبر كل الحواجز التي وضعتها بيننا لأصل إليك.

_تقولين دائما بأن الأسهل يستحيل أن يكون جميلا فالنشوة تكمن في الوصول إلى الصّعب، ذلك المستحيل، تتعبينني هكذا كثيرا، لا يهرك أي شيء ولا يشغل تفكيرك أي شيء وكأنّك قطعة جليد اعتادت على الدّلال في البرّاد فلا يمكن أن يغيرك غير

ذاك الشيء الفريد من نوعه، ترغيبين بحب فريد الطراز، حب غير عصري البتة، ولا قدرة لرجل اعتاد على الفتيات العاديات احتمال هذا، أحاول أنا جاهدا أن أصل لأعمق نقطة في تلك المضغعة التي تنبض بداخلك لكن الأمر بات يرهقني.

_ أنثى كأنت لا يمكن أن تكون البديل أو العوض ولا يمكن أن يكون لها في الوجدان مكان فهي تشمل الوجدان كلّه وأجمعه، لا يمكنك أن تكوني مجرد نجمة لامعة في السماء كالنجوم الأخرى، لا يمكنك سوى أن تكوني القمر تضيئين العالم بكبرياء وعلو وكبر حجم غرورك تتريعين في المنتصف كملكة تلقي الأوامر على حشدها.

_ تهريني دوما يا نارديني، تمرين في بالي فتحييني فكيف هو حالي إذا ما مررت وحيّيتني.

_ أنت كائن رقيق كقطرة ماء صافية عذبة المذاق، ومرآة عاكسة لتصرفاتي معك، أنت هي المرأة التي أسرتني بتصرفاتها وبقيمها العالية، الأنثى التي استحوذت على انتباهي وأفكاري وعلى قلبي أيضا، أنت من تلفت القلب قبل النَّظر وأنت تلك الأنثى غير الاعتيادية وغير المملّة، أنثى صعبة الالتفات والانفلات والإتلاف.

-أنت ساحرة... ساحرتي أنا، أتساءل أين يا ترى تلقيت أصول السحر وتعلّمته؟ هل في مدرسة السّحرة رفقة هاري بوتر وأصدقائه؟ تلهميني دوما لأكون أفضل نسخة من نفسي أمامك لأسعى لك وألقت بعضا من نظرك نحوي، ربّما قد صدقت ذلك اليوم حينما سألتني إن كنا في الحب نظهر فقط الجانب الإيجابي منا وأفضل ما لدينا، تستدعينني لأبذل المزيد من الجهد وأعيش تفاصيل الحياة بكل شموليتها حتى أنعم بك، أحس أحيانا أنّه يجب علي أن أكون بطلا خارقا لأرضيك، تعلمين

ويساعده، فيعمل في ذلك المحلّ مضطرا إلى مقابلة وجوه الأثرياء المتشائمة والمتغترسة التي لا تردّ حتى كلمة شكرا مقابل إساءة خدمة لهم، بينما يرتاح والده من عناء يوم شاق، وفي ليلة رعدية ماطرة بينما كان العم نجيب يعيد ترتيب المجلات ويفرزها لجأت فتاة في العشرينيات من عمرها تحت سقف ذلك المحلّ المتهرئ لتحبي نفسها من تلك العواصف الرعدية، فرق قلب العم لها وطلب منها أن تدخل للمحل حتى يتوقف انهماك المطر الغزير وبالطبع وافقت فما باليد حيلة، دثرها ببطانية صغيرة فشده انتباهه إلى دفتها المبلل فأخبرها بأن تضعه قرب المدفأة ليجف، كانت ترتجف بردا بعينين لوزيّتين بلون بندقي وشعر عجري أسود مبلل، مسدول على كتفها، ترتدي ثوبا أزرقا سماويا وكأنها أميرة عصر فكتوري، نعم هي أميرة قلب العم نجيب، وأنت أميرة قلبي يا نارديني.

لم يستطع العم نجيب أن يخفي مدى انهماكها وبجمالها، وساد صمت مرير بينهما خلال تلك الساعات الطويلة ولكنه كان كلاما يحكى في جوف كل منهما، وما إن توقف هطول المطر حتى غادرت تاركة وراءها آلاف الأسئلة التي تحوم حول رأس العم، اعتلت ملامحه بعض آثار الحزن لكنه انتبه أن تلك الأميرة نسيت دفتها الذي كان بالفعل قد جف فلم يستطع أن يمنع نفسه من التطفل وأخذ فضوله للاطلاع عليه، فوجد به عالما جديدا من عالم الزهور والنباتات وأنواعها، رائجتها ومعانيها وكلما يتعلق بهذه الكائنات الحية الدقيقة، كانت ياسمين متيمة بالزهور، نعم اسمها ياسمين تلك الفتاة التي تعشق زهرة الياسمين، لاشك أن للإنسان نصيب من اسمه فهي ياسمين تحب الياسمين وأنت ناردين تحبين نبتة الناردين وأنا جاسم ذو كبرياء ضخم عال.

- ظل العم نجيب يتخيل في تلك الفتاة وملامحها طيلة الليل ولم يسعفه الحظ بأن ينام فقد قاده خياله إلى ابعده من ذلك، اعتقد أنت الفتاة لن تعود ولكنها كسرت اعتقاده وعادت صبيحة اليوم التالي لاستعادة دفترها وشكره على معرفته، فتجراً هو ودعاها لشرب كوب شاي ساخن في الحديقة المجاورة متحججا بأنه يريد أن يتعرف على الزهور وكل ما يتعلق بها.

_ معك حق يا نارديني فالشاي دائما ما يعبر عن الحب، انه الوسيلة الأساسية في لغة الهوى، ربما مذاقه حلو الطعم يترك أثره في لساننا فنتلفظ بألفاظ راقية وجميلة أو ربما دفئه ذاك يبث الأمان في نفوسنا وكما يقال حينما يشعر الإنسان بالأمان فانه يقول ما يختلج صدره دون تردد.

_ وهكذا تعاشق العم نجيب والخالة ياسمين وغدا يركضان في مروج الحب فيلاحقان الفراشات قرب نهر من كلمات غزل تروى بشلال ينبوعه الحب الصادق الذي يختلج قلب كل منهما، تزوج المحبان وبنيا بيتا صغيرا أحاطاه بحبهما الفيّاض وبالورود أيضا بكل أنواعها في كل جانب منه "ورود الياسمين، النرجس، الأقحوان، البنفسج، الخزامى وورود الجوري تلك التي تعبّر عن صدق المشاعر والسكينة والأمل، كان بيتهما الصغير ذاك مبني بأعمدة من قرميد كالجنة في هذه الدنيا لكن لا بد للقدر أن يلعب بهما ويعبث بمصيرهما فالقدر غالبا ما يهدف إلى تخريب الحب بين اثنين وكأنّه يريد أن يرينا سلطنته علينا وسلطته وأنّه يسيرنا على حسب مزاجه.

_ عانت ياسمين المسكينة من العقم فلم تكن هناك ثمرة لهذا الحب ولكن هذا لم ينقص من حب العم لزوجته شيئا لأنّه أحبّها هي، أحب روحها.

_ جلسنا أنا وأنت بجانب ذاك الكشك الصغير نتأمله وهو يعمل بكل حب وإتقان يخاف عل ورداته من نسيمات الهواء الخفيفة التي تهب، وان التفت ورأنا حتى أتى إلينا ثم قال لك ممازحا:

-كيف غادرت مكانك، منذ مدّة وأنا أبحث عنك كيف اختفيت؟

ملأت رأسك علامات الاستفهام والتعجب فطلبت منه أن يوضح مقصده فقال لك:

-مكانك في تلك الباقة، الباقة المقابلة، باقة الأقحوان وأنتك تشبهين تلك الورود بعفويتك وطيبة قلبك ولونها الأبيض كلون طهارة روحك وأنتك تتشابهين معها فهي ترمز للحياة والأمل والجمال والبيدايات الجديدة وأنتك نقية ككنقائه

_ عجبا لك يا نارديني تصفين جمال الورد والورد بحسبك ينفتن، لا أظن أن الورد كان يهدى لغيرك فأنت تستحقين الورد بالراء أو بدونه.

_ احمرت وجنتاك خجلا، ثم أمرك العم نجيب بأن تعودني لباقتك وتحتبي بها حتى لا ينتزع الريح أوراقك فيقتل جمالك ولا أحد ممّا أن ذاك كان يعلم بأنني أنا سأكون ريحك العاتية التي تنتزع منك أوراقك وبهجتك.

_ ضحكك ذاك اليوم كثيرا من تصرف العم نجيب، دعينا له ليحتسي معنا شايا بينما يسرد لنا للمرة الألف قصته التي ظلت تفتك به إلى يومنا هذا فأين له المفر من عقاب الذكريات السعيدة التي تتسامع فيها أصوات ضحكاتنا تلك التي نشعر بفضلها أنّنا نحلّق في الأعالي دون جناحان لتغدو ذلك السم القاتل الذي نتجرعه كل ليلة قبل أن ننام ويصبح ذاك الجناحان مكسوران مبتوران ويلوح شبح

السعادة من بعيد مغادرا إيانا لتحل مكانه غصّة في حلقك فتنحط دموعك داخل
صدرك لا على خديك.

هل جرّبت أن تشعر بحرارة الدموع على قلبك بدل الشعور بها على خدك؟ ما
الفرق يا ترى بين قطرات المطر التي يذرفها السحاب وبين قطرات المطر التي تذرفها
عيناي، أظن أن ما يخرج من السحاب ينعش روح الأرض وما يخرج من عيناي جمرة
تحرق بلهيمها القلب.

الفراق يا ناس ينهش الروح ويحرق القلب، فاتقوا الله في من تحبّون.

إياكم أن تتركوا أحبائكم ليموتوا ألما بسبب الفراق، إن لم يكن لكم المقدرة
لتصونوا قلوبهم فلا تدخلوها من البداية ولا تؤذوها.

أنهمرت دموعك على خدك، فليس لقلبك الصغير البريء القدرة على تحمل مجرد
سماع شخص يرثي حالته بسبب ألم الفراق فكيف حالك وأنت مضطّرة لتعيشي
هذا الوجع كل ليلة وتعايشي معه.

مسحت أنا دموعك وقبلتك على جبينك قبلة حب وحنان، في الواقع لم تكن قبلة
بل كانت جرعة أعادت النبض لي وتدفقت الحياة حينها إلى دمي، كم كانت الحياة
جميلة بوجودك..

أهديتك باقة الأقحوان تلك التي تقدسينها لأنها في علم الميثولوجيا، دم أدونيس
عشيق فينوس، فابتسمت أنت يا مهجة قلبي لأضيق كعادتي بك، لا اعلم أين لي
بالمخرج من دهاليزك والمفر من متاهاتك المشرقة.

_تأكل قلبي يا نارديني أصبح صهداً ولا علاج له لن يتمكن لا الأطباء ولا الميكانيكيون من إصلاحه، تأكلت بقايا الحب فيه، بقايا حبك المتروك والمزروع بداخلي.

_من قال أن الحب لا يبقى له أثر بعد رحيل صاحبه وأن الذي تخلى عن حبيبه لا يعاني، إن العشق كسيف الساموراي من قوانينه اقتسام الضربة القاتلة بين السيف والقتيل هكذا قالت أحلام مستغانمي في رواية الأسود يليق بك.

_لا مفر لأحد عايش الحب وعانى الفراق من عقاب الذاكرة يا نارديني، تلك التي لن تتركه حتى تراه يموت ويحتضر أمام ناظريها، سيظل الفراق يدمي قلبه كالنار التي تلقى في الهشيم، كنت جنتي التي لم أحمد خالقي عليها فأخرجت منها إلى النار لأحترق وأعرف قيمتك يا فردوسي.

إنَّ بعدك جحيم حقا وها أنا ذا أكل قلبي ندماً على خسارتك فأصابعي العشر لم تكفيني وها أنا ذا أكتب بحبر دموعي ودمي فلم يعد لدي أصابع لأكتب بها.

_خسرتك وانتهى الأمر.

الأثنى تجذب والرجل يركض وكم أمقت وجهة نظرك تلك، رفعت سماعة الهاتف إلى أذني بينما أعد قهوتي، فأجبتك:

-يا هلا بالغالي يا هلا، اش صاير حتى اتصلت؟

فأجبتني إحراج وصوته متردد:

-أهلا جاسم أعتذر عن إزعاجي لك في هذا الوقت الباكر لا بد أنك نائم على العموم أرت المشي تحت المطر اليوم، طلبت ذلك من ميلينا لكنها رفضت متحججة بأنها ستصاب بنزلة برد فهل يمكنك أنت ذلك؟

_أدركت من سرعة حديثك وتلعثمك ونبرتك المترددة أنك فكرت ألف مرة قبل اتصالك بي وأن تلك الأفكار أكلت خلايا دماغك، لم أكن لأجرؤ على رفض طلب كهذا فالدقيقة معك تسعدني عمرا أجبتك قاتلا:

-مؤكد يا عزيزتي سأمر عليك بعد أن أجهز نفسي.

شكرتني وأغلقت الخط.

_غمرتني سعادة لا توصف أنها أول مرة تطلبين فيها شيئا منذ بداية علاقتنا أتى منذ نحو سبعة أشهر تقريبا، جهزت نفسي بسرعة البرق وأنا الذي أستغرق في ذلك ساعات طوال فمن أهم طباعي أن أكون في كامل أناقتي وجاذبية مظهري لكني الآن أرغب فقط باغتنام كل لحظة معك في مدينة الحب التي جمعتني بك.

في هذه الليلة الرمادية الماطرة التي تشبه نجارة قم رصاص، وتحت هذه الدموع الساقطة من السماء أدعو باسمك وبأن يحميك الله ويرزقك راحة البال ويسعدك يا نارديني.

أتعلمين نحن كبشر أن أكثر ما يميزنا هو الحقارة والوقاحة كيف لنا أن نجرؤ على الضحك والفرح بينما السماء تبكي لا وبل أحياناً نرقص على وقع دموعها أظن أن القدر سينتقم منّا بسبب فعلنا المشينة هذه وتفرح هي ونبكي نحن.

أنت صدفة أحلى من كل الوعود، أنت التي اختصرت كل تفاصيل الغرام، أنت أجمل صمت إذا حضرت استحي الكلام، أنت صدفتي أنت زهرة علاجي أنت نارديني.

أنت التي يتداوى المرء بالنظر إليها، أنت التي تعني لي عيناك العالم كله، أنت الفتاة التي عشقها تغلغل في سراييني.

أنت تلك الطفلة البريئة التي تلهمني لأكتب عنها والأنثى العاشقة التي أنعلم الحب والحنان منها والعجوز الحكيمة التي ترشدني نحو الصواب، أنت التي بين الحشود المظلمة لمحت ضوء عينها.

أنت القاسية اللينة التي تبدو غامضة من عشقها للون الأسود وتارة متفتحة تخالها تعيش أبهى عصورها لميولها للون الأخضر، أنت مدينة طرقها بانسة موحشة وبيوتها مليئة بالسكينة والطمأنينة، أنت موطن مليء بالورود وصحراء عمرتها الأشواك، أنت نجمة مضيئة وعممة مظلمة، أنت الهادئة وأنت الصاخبة، أنت العادية وأنت المميزة، أنت البسيطة وأنت المعقدة، أنت الواضحة وأنت الغامضة،

وَأنت تتقدمين نحوي شعرت بأن كل خطوة من خطواتك تمشيها فوق الأرضية لها وقع على نفسي وكأنك تمشين فوق أوردة قلبي وتخطين على شرايينه فيسمع وقع حذائك عليها.

أبصرتك وتأملت ملامحك المميزة، أتعلمين من يراك ثانية ينفتن بك دهر، كنت ترتدين جينز أسودا عريضا وقميصا أبيضاً وشاحاً أسوداً بخطوط بيضاء وتنتعلين جزمه جلدية سوداء اللون وسواراً رمادياً يغريني تناسق ألوان ثيابك وكيفية اختيارك لها بلونين أو ثلاثة تتلاءم مع بعضها البعض تساءلت أن ذاك في نفسي:

-هل يمكن أن يجتمع تناسقك مع فوضويتي وبعثرتي؟

ضحكت بصوت مرتفع، ثم قلت لك:

-صباح النور أيتها الطابعة القديمة..

رفعت حاجبك باستغراب ثم قلت:

-طابعة؟

استأنفت حديثي:

-تشبهين الطابعات القديمة أسوداً وأبيضاً... لم الرمادي إذن؟

نظرت نحوي بالضبط بقلب عيناى، لا أعلم لما أحب أن أقول بأن للعينين قلباً ربّما لأنني منذ رأيتك بعينيّ وقع قلبي بمصيدة حبك.

كنت تسبقيني ببضع خطوات توقفت ثم قلت:

-الأبيض والأسود ليسا متناقضان فهما يشتركان في الرمادي أليس كذلك؟

"قالها الكاتب عبد الحلیم بدران"

ثم أردفت:

-وأنا دمجت هذين اللونين في هذا السوار، أترى؟

ضربت براحة يدي جبتي بسبب تفاهتك التي تجعل الشخص يجن ولكنها في الواقع تسعدني كثيرا.

بين سطور سعادتني يقع اسمك "نارديني" أنت الفتاة الغير تقليدية

_أذكر ذات مساء عرضت علي أن أشاركك طقوس ما قبل النوم الخاصة بك استغربت ظننتها تتعلق بماسكات العناية بالبشرة وتلك المنتجات باهظة الثمن التي يصرف الفتيات رواتهن عليها هذا إن كان لهن رواتب أصلا، لكنها كانت غير ذلك تماما.

_بداية أمرتني أن أقضي ما فاتني من صلواتي، لم أجرؤ على أن أخبرك بأنني لا أصلي لأنني استحييت منك فكيف لم أستحي من خالقي، أي ندالة أملكها أنا، كل ما أنوي أن أتوب وألتزم وأرجع إلى خالقي يغريني الشيطان مجددا، لا يمكنني أن ألتزم يا نارديني دائما ما أقول أنه يجب أن ألتزم معك أن ألغي جميع صداقاتي لكنني أعود دائما لأفعالي، لا قدرة لي لمقاومة نزواتي ربما لأنني عشت مدلا يلبي لي جميع ما أطلبه

أنت الوحيدة التي استعصى علي أخذها لكنني في النهاية حصلت على قلبك وكانت تلك الليلة أول مرّة أركع فيها وأسجد على سجادتي بعد سنوات من الانقطاع والغياب عن فريضة الله، لا أعلم لكن انتابني شعور غريب يصعب علي وصفه مهما حاولت.

_دائما ما أسألك إن كان الله سيقبل توبتي أم لا فتقولين:

-إن الله غفور رحيم.

أواصل تساؤلي واستفسارك

-ولكن ذنبي كبير.

تعيدين علي مسامعي:

-إن الله غفور رحيم وتضيفين:

-إن الله ترك لنفسه تسعة وتسعين رحمة وخصنا برحمة نتقاسمها في هذا الكون الفسيح اللام تناهي، فقط تب وعد إلى الله.

أسألك مجددا:

-أقبلني؟

تجيبين:

-أجل، فقط كن صادقاً في توبتك.

ثم أضيف سؤالاً آخر:

-وذني؟

فتقولين لي:

-يغفره

لأنّهي أنا أسئلتني ب:

-وماذا إن أغواني الشيطان وعدت؟

فتتحدثين بنبرة حانية:

-تب مجدداً، إن الله يحب العبد الأواب ذلك الذي يخطئ فيعود ويتوب، يفرش سجاده ليلًا والناس نيام يسجد ويناجي خالقه أن يغفر له ذنبه نحن أبناء آدم وقد كتب علينا أن نخطئ وخير الخطاءين التوابون، فإن أخطأت ألف مرة تب للمرّة الألف والواحد وقل دائماً اللهم كما أريتني ذل المعصية فأرني عز الطاعة.

هديت حبك فاهتديت.

كنت أنت تلك الشعلة التي تنير طريقي وتوجهني نحو خالقي.

-بعدها قرأنا وردنا اليومي لم اعلم لكن رجفة اليد التي عانيت منها عندما لمست
المصحف الشريف، سرت قشعريرة بجسدي وكأنه تكهرب، أهذا طعم التوبة بعد
العصيان؟ إنّه مريح جدا وكأنني ولدت من جديد بروح تعيش في السلام والطمأنينة
والأمان.

_ استلقيت على فراشي وبعدها ببضع دقائق عاودت الاتصال بي وشغلت مجموعة
مقاطع صوتية بصوت الكاتب عبد الحليم بدران من كتابه المتمرد وقد كان اعز
فصل لك هو انفصام، أهنئي مدى العمق والتعمق في كلامه، حروفه تلامس أوتار
القلب.

واستمعنا لصوته حتى غفونا.

_ تعجبني طقوسك تلك، تقاليدك وعاداتك

_ تجولنا تحت المطر الذي كان كستائر تلف زجاج المقاهي والمطاعم، وجهتنا كانت
الميناء "مكانك المفضل" تخبرني دائما بأنك تحبين السفر، تجدين فيه حريتك،
الغربة صعبة والاعتراب عن العائلة أصعب بكثير ولكنها تجربة تكسب المرء خبرات،
تحبين أنت السفر وتعشقينه وهذا سبب من أسباب اختيارك لمهنة الطيران.

_ جلسنا تحت السماء والتي تنهمر منها قطرات من الغيث تمسح عنا بها أحزاننا
وهومنا، كم رؤية الجو ماطر يريح النَّفس؟

_ كنت تلعبين برجليك فوق سطح البحر ثم نظرت نحوي وقلت بعفوية:

-جاسم ما أحب المناظر إليك؟

أجبتك مباشرة دون أدنى تفكير:

-ابتسامتك.

_خجلت واحمررت وجنتاك فغطيت وجهك بكلتي يديك، وان خدك إن تلون بالخجل

غدا أجمل خد في الدنيا فما أجمل خدك بلون الخجل!

الدفء لم يقتصر على ضوء الشمس وحسب، ضحكتك أيضا خيار آخر، فيا ترى
من أي زمرد أنت؟

-جاسم لما تغازلني هكذا.

-أولست من محبي غزل نزار قباني ومحمود درويش وغيرهم؟

-أمم... في الواقع راقتي غزلك، جاسم أتعرف بأني أقرب لأرسطو.

-أهاه! كيف ومن أين يقربك؟

-ابن عمي من جدي أبو أمي ولكنه يقرب خال أبي.

-ههه، من عبث بخلايا مخك.

-ألا تليق بي الفلسفة يا فينوس؟

-تليق بك الفسططة لا الفلسفة.

-لم دائما تنتقدني دوما، ينبغي أن تدعم دوما وأن لا تحول كمانع بين الشخص
وحلمه

- أنا لا أفعل

- بلى

-لا أفعل

-امم، حسنا فهمنا

_توجهنا بعدها للمقبري المقابل وابتعنا كويين من الشاي الساخن "شاي حينا".

قاطعت أنت صمتنا

-جاسم

- ما الأمر

-أتعلم طيلة حياتي وأنا أتمنى أن ألتقي بشخص كلما يرى السماء تمتلئ بالغيوم
الباكية يتصل بي على رقصة تحت هذا الجو يمسك بيدي ويركض معا تحته ثم
يهديني في النهاية باقة من زهور التوليب "زهور الحب"

سألتك حينها

أهـدى لك الورد أم تهـدين له؟

ـ بكل لحظة تشرقين أنت يا فاتنتي تنثرين رحيق أقحوانك فيملاً عبق رائحته الزكية
المكان وأنفي أيضاً، فدعيني أستنشقك وأرتشف طعم الحب منك.

فقلت لي وأنت تدفئين يديك بكوب الشاي:

- يا ليت يداك من تصنعه.

أجبتك وأنا أرتشف من كوبي:

- سأفعل ذلك كل صباح باسم مشرق، أجهز لك طاولة الإفطار والشاي أيضاً.

-حقاً.

-أعدك بذلك.

-تعلم أن وعد الحر دين عليه.

ـ ناردين صدقيني لطالما كان الوفاء بالوعود من شيمي ويسري مصطلحه في دمي،
لكن هذا الوعد لم أستطع الوفاء به، لم أسع لك كما يجب كنت متطلبة ولم أكن
أحب ذلك، خيبت ظنك وتركتك لغيري.

قلت لك يومها:

-ناردين ستكونين ملكي.

فأجبتني:

- لا سلطة في الحب، وحب التملك لم يكن يوما حبا حقيقيا...تدرك هذا يا جاسم
أليس كذلك.

-أجل لكنني لا أتملكك بل أرغب بأن تكوني حلالي.

-إذن ادعوا الله أن يرزقك حبي وأكون من نصيبك واسع لذلك أيضا فأنا أنثى تقديس
اسمها فما بالك بذلك القابع يسار صدرها.

-تاردين...لكنه يبيض حبا لي أليس كذلك؟

-أمممم.

-أتعرفين معنى أممم هذه التي تتلفظين بها أم لا؟

-أعلم.

-حقا، إذن لا تكابري قولها لي لمرة واحدة...رجاء، هيا أريد أن أسمعها.

-أحبك...

-وأنا أموت فيك

-لما تستخدم كلمة الموت وتربطها دائما بالحب.

-لأنهما يتشابهان فللحب مقدمات وللموت سكرات وكلاهما تغادر فيه روحك
جسدك، الأولى لتسكن بجوار من تحب، والثانية لتصعد بين يدي رحمة
خالقك...أليس كذلك....

-أقنعتني بوجهة نظرك...إنها سديدة.

-وجهاً نظري دائماً سديدة.

- يا لك من متغطرس مغرور

- ويا لك من عنيدة.

-جاسم ما هي هوايتك.

-لدي الكثير من بينها الرسم والسباحة وقيادة الدراجات النارية.

-ارسمني إذن.

كيف أرسمك وأنت مرسومة بماء عيني على شفاه قلبي وفي أعماق روحي.

-ابتسمت وضعت أنا بك كعادتي.

-ثم أخذت تدندنين بصوت وحروف غير مفهومة.

فسألتك باستغراب

-ماذا تفعلين، هل تلقين علي طلاسـم سحر والعياذ بالله.

-أغني.

-تغنين...ماذا.

-أغنية

-حسنا فهمت

-هل تود أن تسمعها

-بصوتك؟؟

-أجل

-لا، شكرا.

-لم؟

-أخاف على طبـلات أذني أن تتمزق.

-لكن صوتي ليس سيئا.

-واضح هذا...

أذكر حينها كيف قطبت حاجبيك واعتلت ملامح الغضب وجهك، أدركت أنك حزنت وأن كلامي استفزك ولكن ملامحك وأنت غاضبة تروقني ولا أعلم لما، كل ما أعلمه هو أنك جميلة بكل حالاتك.

-فقلت لك محاولا نيل رضاك

-أتعلمين لو الرضا صوتك، سأحزن بدون سبب.

-أممم واضح هذا..ألم تقل توا أنه سيئ.

-كنت أمزح معك وحسب، تمام غني ولكن إذا أصاب أذناي شيء عليك بزيارة الطبيب معي.

- كم أنت غليظ الطباع يا جاسم؟

-أحسن من أن أكون رقيقا....هههه

-وابتسمت مجددا وأغمضت عيناك.

_ ابِتسامتك هذه يا بريئتي تغريني لأحبك أكثر، تلك الابتسامة التي توزعينيها صبيحة كل يوم على جميع العابرين أمامك رغم جراحك وندوبك الغائرة تفتتني.

-تمام غني إذن.

-حسننا.. لكن إياك أن تضحك

-لن أضحك.

بروحي فتاة بالعفاف تجملت

وفي خدها حب من المسك قد نبت

وقد ضاع عقلي...

وقد ضاع رشدي منذ أقبلت

ولما طلبت الوصل منها تمنعت

ولما طلبت الوصل منها تمنعت

آها آها آها يايبى

بلغوها إذا أتيتم حماها

أنى مت فى الغرام فداها

واذكرونى لها بكل جمىل

فعساها تحن عساها

بلغوها إذا أتيتم حماها

أنى مت فى الغرام فداها

واصحبوها لتربتي فعظامي

تشتهي أن تدوسها قدماها

إن روعي تناجمها

وعيناي تسير إثر خطاها

لم يشفني سوى أملي

أنني يوما أراها

اها اها اهاياييايياي

-معناها جميل وكأنها تشرح قصتنا

-ربما

-ناردين، هل يقتل الحب؟

-أظن ذلك لأنه يقال ومن الحب ما قتل

-ماذا إن أصبت بالجنون بسبب حبك

-لا تقل هذا... نحن لن نفترق

لكن ما الذي حدث..لما افترقنا، ناردين أنا الآن في المصححة العقلية..يقولون بأنني مجنون..أنا لست كذلك..أنا فقط فطر قلبي وكسر بسبب الحب..أنا فقط لم أعرف كيف أحب وحين وجدت الحب الحقيقي كان أكبر من طاقتي فلم أستطع تحمله... ناردين يقولون أنني نرجسي وأنني شيطان بهيئة بشر..لست كذلك تدركين هذا..رجاء قولي أنني لست كذلك..أنا على حافة الانهيار.

-ناردين لقد فقدتك... فقدتك يا زهرة علاجي وهامي الأمراض تستولي على جسدي وما باليد حيلة.

-ولازم كلانا الفراش والحمى تفتك به بسبب اقتراحك ذاك "مشي تحت المطر"

ووجدت بعد عناء يا صغيرتي

هاتفك عصام فأنتيت مسرعة بيجامة نومك الوردية المزركشة بزهور
الأقحوان، زهورك المفضلة. 

أنت هي سيدة النساء في نظري، سيدة الأقحوان، أنت أميرتي وجميلتي
فإياك أن تتخلي عني وتتركيني في وحدتي فلابتعاد عنك ابتلاء، انه الجحيم
الدينوي. 

انحنيت لي ومسكت وجبي بيديك الناعمتين، كنت أرجف بشدة، ضمته
بينهما ثم مسحت بيدك على شعري وحدقت عيناك بصلب عيناى ثم
نطقت شفثاك: 

-جاسم لا تخف أنا هنا بقربك 

كنت عاجزا تماما، أخرسا وأصما وأعمى، ضممتك لي وشممت رائحة شعرك فعاد
لي بعض من الروح، أحسست حينها بقلبين يعيشان داخلي بدل قلب واحد، أوافق
جدا أولئك الذين يقولون بأن العناق هو كل الشعور، وأن قلوبنا تسكن بالجانب
الأيسر مما يستدعي بقاء الجانب الأيمن فارغا، فعندما تعانق شخصا يمتلى كلا
الجانبان فنشعر وأن الفراغ الذي بداخلنا اختفى وأن الفراشات تحلق داخل
بطنك وبأن قولونك العصبي يؤلمك من فرط التوتر، تحس بأنك تملك أجنحة،
فرحتك تسع الكون أجمع

أستغرب كيف لكلمة واحدة كأحبك أو أكرهك متكونة من أربع أو خمسة حروف
أن تغير الكثير في نفس الشخص وحياته حتى، كيف يمكن للأولى أن ترفعنا لأعالي

لذا فنحن مضطرون للسير دوما ومواصلة الحياة فلا أحد يعبأ أو يهتم لحزننا، نحن فقط من نعيشه، يجب أن نقف بكل جروحنا وندوبنا في قمة شيدت بصخور من دموع وحجارة من فتات القلب والروح، أما الآلام فنتركها للزمن فوحده القادر على معالجتها.

كنت انحط دموعي داخل جوفي، صوت ضربات قلبي الملعونة التي لا تكف عن الدوران، أصابني ضيق تنفس شديد، إنها نوبة هلع.

مسحتي بيدك على شعري، كنت تهمسين في أذني بأن أهدأ، وبأنك معي، أتذكر أنك أخبرتني بنبرة حانية:

-جاسم إن كنت تريد أن تبكي فافعل، فالبكاء أحيانا ضروري لأنه يمسح ما بداخلنا من شوائب فنعود بروح رقراقة نقية، بكاء الرجل ليس عيبا، ابكي براحتك.

.نبست حينها بصوت مرتجف بعد صمت مرير ولجت فيه:

_ناردين، أخبري الوحش الكاسر أن يخرج من كياني إنَّه يأكل مَيَّي يا نارديني يهلكني ويقتلني، إنَّه يسلب مَيَّي روحي، أمره بأن يغادرني ليتركني أعيش بسلام لعلَّه يذعن لأوامرك.

_ترجيتك كثيرا حتَّى بَحَّ صوتي لم أكن أستطيع التوقف:

_ناردين إنَّني أنهار، أنا على الحافة ولم تعد قدماي تستطيعان حملي، أسندني يا نارديني، إنني أختنق رعبا، لم أرغب يوما أن أكون هكذا، لم أرغب بان أكون مؤذيا

ولا نرجسيا، لم ارغب بأن أستغل الناس من حولي، لم ارغب بأن ألعب بينات الناس لكن شيء هناك يقبع داخل أعماقي كان يدفعني لفعالها لم أكن أنا هو ولا كان هو أنا أنا مجرد ملاك طاهر وهو شيطان مدّس يرتكب تلك الأفعال الشنيعة ثم يهرب لأعلق بها أنا وأواجهها، ناردين لم اختر أنا نفسي لم أكون بمحض إرادتي ذاتي، هم من فعلوا، اعتقيني يا نارديني أبعديني عن نفسي فإنني أؤذيها، امنعيني مني ولا تسمحي لنفسي بأن تهلكني، أنا أحتاجك يا ناردين لا تتخلي عني عديني أنك لن تركيني، لن تفعلي أليس كذلك؟

-ناردين، انه يعزف ويرقص في رأسي، أخبريه أن يوقف جوقة الأفكار، أشعر بصداع شديد، رأسي مثل قارورة غاز كبيرة تنفجر ولكن ببطء.

_وضعت كفّ يدك اليمنى على جبتي ثم اقتربت مني وقلت بصوت خافت من ثغرك
اللازوردي:

-لن أفعل، لن أتخلي عنك مهما حدث.

-وجدت حينها ابتسامة لأرسمها على وجهي، ابتسامة تطغى بين موجات الألم.

_فما بالك تخليت عني الآن وأفلت يدي يا نارديني؟

_ذاك اليوم، السماء كانت متورمة هي الأخرى مثل عيني الغائمتين اللتين تذرّفان دمعا كالجمر، يملأ ضبابها الشوارع كما يملأ حزني جميع أركان قلبي الذي أضحي كزوايا رصيف متآكل وكأنه بخار يتصاعد من حمام ساخن أو ربّما كانت تتصاعد من قلبي المحترق من يدري؟ ضوء القمر كذلك كان شحيحا كشح الأكسجين الذي

-أحبائي؟؟

فأجبتني:

-يقول علم الميثولوجيا أن هذه الأصوات التي تسمع فوق أسطح البيت ليلا هي وقع أقدام أرواح الأشخاص الذين يحبونك وللأسف رمت بهم الأقدار بعيدا عنك.

قاطعتك قائلا:

-لو كانوا يحبونني صدقا لما رحلوا.

-جاسم ربّما لديهم ظروف، عليك أن تقدّر ظروف الآخرين وانشغالاتهم.

-ليس لديّ أحياء من الأساس يا ناردين.

-لم تقول هكذا؟

-إنّها الحقيقة.

-لا، أنت لديك أحياء، أمّك، أبوك، شقيقك رواد وشقيقتك نجم، أصدقائك وأنا كذلك أحبّك.

-أنت مخطئة، لا أظن، جميع من عرفتهم يتظاهرون بالحب تجاهي إمّا لأجلي مكانتي أو لأموالي، فقط أمي وأبي وشقيقي وأنت وصديقي عاصم أحببتموني بصدق وأنت أكثرهم فأنت من تقبلتني بضعفي وهواني وورجسيتي..

-أرأيت أنت تعترف بأنه لديك من يحبونك، كما أنني موجودة بجانبك، أولست
أغنيك عن العالم كله؟

_بلى، أنت التي تغنيني عن العالم والكون كله، أنت زهرة الأوركيد في جمالها وحسنها
والقرنفل في كبرياءها، عجزت كل حروفي عن وصفك يا نارديني فأنت روايتي
الوحيدة، ما أظنني كنت لأكون كاتباً لولاك، وعن ماذا سأكتب؟، أنا الذي أتأملك
أعجز عن ذكر سماتك فكيف هو حال من يقرأ كتاباتي ويتخيّلك، مع تمنياتي أن
لا يكون ذكراً لأتني أغار.

_إنّ قلبي لا يكف عن الترنم باسمك وإنشاده، أنت التي لا تترجمين لا بقصيدة ولا
بأغنية ولا حتى برواية كلّمّا يفعل لأجلك قليل، أنت عطر فرنسي سلب قلبي قبل
أنفي، أنت الارتقاء والرقي فليست تختارين إلا شخصاً راقياً مثلك.

_أنت شخص مختلف عن الجميع، أنت ذاك الشخص الذي جبر خاطري فلما أنا
كسرت خاطره؟

_غصت أنا في أعماقك وغصت أنت في أعماقي، فهمت أنت طريقة تفكيري ولم أفهم
بعد طريقة تفكيرك.

_أنت النور الذي سخره الله لي لينير حياتي المظلمة فلو خُيرت ألف مرّة سأختارك
أنت دائماً وأبداً فلا أحد استطاع أن يصل إلى ذاك العمق في نفسي قبلك أنت ولا
بعديك.

قلت لك:

-أصبح علم الميثولوجيا والأساطير يروقي.

-حقا..لم؟

-لأنه يَبِّثُ فيك بعضا من الطاقة الإيجابية وإن كان كذبا، الدراسات العلمية تعج بالحقائق الممّلة.

-لكن الحقيقة المرّة أحيانا أحسن من أسطورة جميلة أليس كذلك؟

-أجل، لكن أتعرفين ماذا تقول الحقائق العلميّة عن الصّوت الذي يسمع ليلاً فوق أسطح المنازل.

-لا.

-فقط إنّه الذي يبني منه السطح فهو يتقلّص في النّهار بسبب لفح الشّمس له بحرارتها ثم يتمدد ليلا بسبب الهواء البارد، لا أحياء يأتون ولا راحلين يعودون هي فقط مجرّد خرافات تسعدنا وحسب.

-لكنّها أحسن من حقائق تبكيينا.

-أخالفك الرّأي ناردين، فالحقيقة المرّة أحسن بكثير من الأكاذيب التي تسعدنا.

-ربّما معك حق في هذا جاسم.

-ناردين..أريد أن أغفو.

-هل أداعب خصلات شعرك.

-لا، أريد أن أسمع قصّة.

-أمم حسنا... أيّ واحدة.

-لتكن من تأليفك.

حسنا إذن أغمض عينيك واسرح بخيالك معي.

-تمام.

في عصر قديم مضى ولدت أميرة، أطلق عليها اسم ناردين "نبته ذات رائحة زكيّة تستعمل للعلاج" لم تكن الفتاة آية في الجمال بل كانت تملك ملامح عادية بطريفة مميّزة، عفويتها هي أكثر ما غلب في طباعها، لطيفة تبتسم في وجوه الكل صباح مساء سواء كانوا خدما أو شعبا أو أمراء لهذا أحببها الجميع واحترمها ولكنها كانت تمتلك عيبا واحدا، ألا وهو العناد فقد كانت كالفرس الحرون القموص، كبرت الأميرة وأصبحت ابنة يافعة فتقدم لها أمراء ووزراء بأموال وجاه. من ممالك أخرى ولكّتها رفضتهم جميعا، لم تكن لتقبل إلا بذاك البطل الخارق الحنون الذي سيجعل قلبها يلتفت إليه، حاول والدها الملك إجبارها على الزوّاج وأن لا تخالف عادات العائلة غير أنّها لم تأخذ بالا للعادات و تقاليد.

بينما في إحدى القرى الصغيرة كان هناك فتى يافع يتميز بالحيوية والطبع المرح، هو كذلك كان محبوبا جدا من طرف أهل قريته لأنّه ما إن رأى أحداً يحتاج

المساعدة إلا وهبَ لمدِّ يد العون، عرف بأخلاقه العالية ومبادئه السَّامية وبالعاشق الولهان الذي يعيش في أحلام اليقظة فقد كان يتمنى أن ترى تلك العنيدة في وجهه، لا وبل ان تبادل له مشاعر الحب كذلك، فقد وقع في شباكها من أول مرّة أبصرها فيها فهو لم يكن يعرف الحب قبل عينها، فكما يقال العيون تعرف الحَب جيّداً، ولطالما كان يردّد جاسم لناردين وناردين لجاسم ودائما ما سخر منه أصدقاؤه لهذا فتلك المتمرّدة لم تقبل حتّى بالأمرء والملوك فما بالها كي تقبل بمزارع بسيط ومدرب أحصنة هاوٍ في عالم الفروسية.

فضّل جاسم التعايش مع الحيوانات على التعايش من البشر لأنّه رأى أن الإنسانية الحقيقية والرّحمة متواجدة بقلوب هذه الهائم وليست بقلوب النّاس، فكان يقضى جَل وقته معها، ينام بجوارها ويحدثها عن أحلامه بأن يكون زوجها صالحا للأميرة يسرح بخياله ويغوص في أعماقه تارة ثم يعي على نفسه فيسخر منها ومن أحلامه البعيدة التي تلامس السحاب.

في الجهة المقابلة كانت الأميرة عاشقة ولهانة للأحصنة تملك فرسا أبيضاً أطلقت عليه اسم "توفانا" أول قطرة غيث تنزل من المطر، تعلّقت الأميرة بتوفانا كثيرا فكانتا كشقيقتين مقربتين من بعضهما البعض وتلاحمت أرواحهم وتوادت وللأسف الشّديد أصبت توفانا بمرض لم يعرف ما هو، فأضحت طريحة في الإسطبل وامتنعت عن الأكل والشّرب، فصامت الأميرة هي الأخرى عن هذه الأخيرة وتدهورت صحّتها جدا ووصل بها الأمر إلى أن تكتئب وتغلق على نفسها في غرفتها تأبى محادثة أحد، توارت عنها ابتسامتها واعتلت وجهها ملامح من الحزن، حاول والدها أن يعوّضها بجميع أحصنة القصر ولكنّها لم تكن تغب بها هي كانت ترغب فقط

بصديقتها الوّفية والمخلصة "توفانا"، حاول أمهر بياطرة المملكة معالجة الفرس لكن دون جدوى فهي لم تكن لتستجيب لهم حتى، إلى أن تناهى إلى مسامع أهل قرية جاسم بأن الأميرة حزينة جدا لمرض حصانها وبالطبع أسعد الأمر جاسم بقدر ما أحنه فالفرصة للقاء الأميرة أتت لعند قدميه ولكنه لم يرغب بأن يراها حزينة أو بائسة فالحزن لا يليق بوجهها البشوش

_توجّه بسرعة البرق نحو القصر عارضا نفسه على أنّه بيطري وبإمكانه معالجة الفرس وإعادة البسمة إلى شفاه الأميرة، سخر الملك منه قائلا بأنّه لم يسمع به من قبل وأنّ صيته غير مذاع وشكّك في قدراته لكنه أصّر على منحه فرصة واحدة ليثبت نفسه ومهاراته فمنحتها له الأميرة التي أول ما وقعت عيناه على عيناها انتفض قلبه، لم يكن يملك أية معدات طبية فاستغرب الجميع لذلك.

_طلب بداية أن ينام مع توفانا في الإسطبل فرفض الملك ذلك رفضا قاطعا قائلا بأنّه من مبادئه أن يكرم ضيوفه مهما اختلفت طبقاتهم أو أصولهم فأخبره جاسم بأنه ترعرع في بيت سيّدته حجارة من طين ونام على فراش مصنوع من القش والتبن وتوسد العشب الأخضر.

_لم تأتمنه ناردين على أعزّ ما تملك فالثقة بالغرباء تعني بأنك أدخلت العدو لعقر دارك.

_استلقت هي بجوار أنيستها تمسح على ظهرها ورأسها ونظراتها تحمل كمًّا هائلاً من الأسي على ما حلّ برفيقة دربها، تجرّأ هو وياشر بالحديث قائلاً:

- يبدو أنك تحيّن الأحصنة كثيرا، أليس كذلك؟

فأجابته هي عن تساؤله بصوتها الرقيق المهموم:

- أجل، أنا أحب جميع الأحصنة وبالأخص توفانا فأنا وهي نتشارك نفس الرّوح.

فواصل الشاب كلامه:

- هي كذلك تحبّك وتهواك.

فقالت له:

-حقًا... كيف ذلك؟

فأجابها هو بتساؤل:

-ألم تلحظي ذلك في عينيها؟

فنبست شفاتها ردًا على سؤاله

-لا، لكن أتجيد أنت قراءة لغة الأعين.

فنطقت شفاهه بمعنى وجوفه يرغب بمعنى آخر:

-من يحبك سينظر إليك بلمعة في عينيه بنظرات كلها حنّية وحب وكأنك أعلى ما

يملك في هذا الكون.

فقالآ هي بعفوية:

-وهل لجميع الكائنات لغة أعين.

فأجابها هو:

-أيّ كائن يشعر بالوّد والمحبة والحب يملك لمعة أعين وكذلك هي الأحصنة.

فأنهت هي الحديث ب:

-هكذا إذن، شكرا لك على معلومتك هذه يا...

فأجابها:

-جاسم... أدعى جاسم.

_تمنى جاسم في نفسه كثيرا لو أنّها لحظت لمعة الأعين تلك بعينيه، لو أنّها رأآ كل ذاك الحب الذي يفيض به قلبه لها، لكنها لم تلحظ ذلك مع الأسف، اهتمت بحصانها وحسب.

_قضى جاسم في القصر مده ليست بقصيرة، ظلّ خلالها يحادث توفانا وهمس بأذنها وأحيانا كثيرة يغني لها وصبيحة كل يوم مشرق كان جاسم يمسح على ظهرها بماء التهر الصافي والعذب، وفي الليل يتأمل ثلاثهم النجوم فيحاولون عدّها في كثير من المرّة وإعطاءها أسماء في أحيان أخرى، إلى أن تعافت الفرس وأضحت تجوب أرجاء القصر وتركض بكل رشاقة في المرج الأخضر، وحينها الأميرة لم تكن لتستطيع

إخفاء مدى انهارها بجاسم وطيبته وحنانه ووقعت بحب وتحقق حلم جاسم
فتزوجها وعاشا بسعادة وهناء.

دُتِّمْتُ

حينها قلت لك بعد أن أعادت لتلك القصة بعضا من بهجتي وطمأنينتي:

- خيالية مميزة، مشكورة عليها نارديني، كما أنني استفدت منها عبرة جميلة:

فسألتني:

- ما هي؟

أجبتك:

- على الشخص أن يسعى لحلمه مهما كان صعبا وأن لا يستسلم كما أنه عليه أن
يتّصف بالطيبة والحنان.

_ حينها تثناءبت فوضعت يدك على فمك

فقلت لك:

- لا شك أنك تشعرين بالأمان برفقتي.

سألتني متعجّبة:

فسعيت لأريك بأني قوي وبأنه لا حاجة لي بك وأنك لا تهميني وأني لم احبك أبدا
يا نارديني مع أنّ داخلي ظلّ طول الوقت يطالب بك.

فأفصحت عن علاقتي بهيام أمام الجميع وبأني أحبها وصدقا أنا كذلك، جبت
معها أرجاء الجامعة، جلست معها نتسامر أنا وهي الحديث حتى إنّني قد عدت
لسابق أفعال أو ربّما أعلنتها بعدما أخفيها فترة تعلقي بك فأخذت أحداث الفتيات
وأصطحهن معي ظلّنا مميّ أن ذاك كان ليثير غيرتك فتعودين لي متوسلة بأن لا أتخلى
عنك لكني كنت مخطئا فأفعالي تلك كانت تجعلك تشعرين بالقرف مميّ، لم أبادر
لك بالحديث إلا نادرا وكنت أتعامل معك ببرودة وكأنك لا تعنين لي شيئا، وأظني
قد تعمّدت أن أخبرك بأني سأتي إلى الجامعة يوم الإطلاع على النتائج لكنني لم
أفعل، لم أكن رجلا ولم أكن عند مقام كلمتك فضلت البقاء مع أصدقائي بالشاطئ
على أن آتي لأراك بينما انتظرتني أنت هناك بفارغ الصبر لتباركي لي نجاحي وانتقالي
للسنة الموالية، كم كنت غيبا أن ذاك، ظننتك تعودين لي فصل الصيف وتحاولين
أن تبادري بالحديث معي لكنك اختفيت تماما، كنت السبب بذلك فلو أتيت ذاك
اليوم الذي مازال عالقا بذهني لو أنّني حضرت في الخامس والعشرين من الشهر
السادس لربّما لم تكن الأمور لتصل إلى هذا السوء بيننا لربّما ما كانت علاقتنا
لتنتهي، مضت ثلاثة أشهر لم نلتقي ولو صدفة وكان أحدها سافر لكوكب آخر، حتى
الشوارع أبت أن تجمعنا ولو لثواني معدودة، حلّ بعدها عام دراسي جديد، مرّت
الأيام حثيثا، كنّا نرى بعضنا أحيانا فتلتقي أعيننا صدفة لأحاول أنا قراءة ما تبوح
به، متيقن تماما أنك كنت تحاولين ذلك أيضا، حلّ بعدها فصل الشتاء وحلّ بي
ألم بان على ملامعي فأصبحت أغلب ملابسي سوداء اللّون، أحطت عنقي بقلادة

من الفضة تحمل أول حرف من اسم هيام باللغة اللاتينية ربّما كي أئين لك بان في قلبي فتاة غيرك، أحبها وأهواها، أو كي أقول لك بأنني لست حرا فأنا أمتلك حبيبة لا أدري حقا ما كنت أرمي إليه، كنت مبعثرا.

_ استوتقت النظر لك من بعيد مرّات عديدة، كلّما مررت بجاني تبتسمين تأملتك بتفاصيلك وعشوائيتك، واثق بأنك كنت تلحظيني ولكنتك تعمدت تجاهلي.

_ عادت علاقتي بهيام مفعمة بالحوية والنشاط وتشملها بالمتعة كما كانت من قبل، قبل معرفتي بك.

_ راسلتني في الخامس والعشرين من مارس، أظني لاحظت شيئا غريبا، أليست معظم تواريخ الأحداث التي أحدثت تغييرا كبيرا في علاقتنا هي الخامس والعشرين دوما، ما سرّ هذا التاريخ الغريب يا ترى؟ كتبت لي بالحرف الواحد:

- هناك سؤال واحد يجول ببالي يؤرقني نهارًا وينزع مَيّ فرحتي ليلاً، هل يمكن للحسد والغيرة يا ترى أن تجعلك تسعى لتدمر المسيرة الدّراسية ومستقبل إنسان.

_ بعدما استفسرت منك على الأمر، أخبرتني بأنّ أفرادا من أصدقائي أخبروك بأنني تعهدت بينهم بأنني سأدمر مستقبلك ومسيرتك الدّراسية.

_ حلفت لك يمينا أنني لم أفعل حتى إنّني حلفت باسم أمي كونها أعلى ما أمتلك في هذه الدنيا، أخبرتك بأنهم كانوا يريدون لعلاقتنا أن تتدهور، أرادوا أن يفرّقوا بيننا، صدقني يا نارديني أنا لم أقل شيئا كهذا.

_ اعترفت لي بعدها بأنك تحلمين بي وسألتني إن كنت أنا كذلك أحلم بك فأجبتك نفيًا وانتظرتك حتى تبادلري بعدها بإرسال رسالة لي ففاجأتني بأنك حضرتني.

_ مرَّ ما يقارب الشهران آخران دون أن نلتقي، والتقينا بعدها صدفة في محلّ، كنت جالسًا على الطاولة أكل ودلفت أنت فجأة، لم أستطع أن أشيح بنظري عنك فالتفت لي، تأملتني بنظرة خاطفة وابتسمت لي ثم غادرت.

_ لنقل أنني كنت مندهشًا من ذلك، لما ابتسمت لي، ما دافعك وراء هذا؟ ظلّ هذا السؤال ببالي ولا زال.

-6378- هل تشاقين مثلما أشتاق؟

أتعلمين يا نارديني أين أنا الآن؟ سأجيبك، أنا قرب المدفأة، تلك المدفأة التي طالما تمنيت أن نجلس أمامها أنا وأنت حلالًا، تلك المدفأة التي طالما كنت تقولين بأننا سنتدفأ بها شتاء ونتغطى ببطانية حمراء ترمز لحبنا

أنا منتشي الآن فوق الأريكة أشاهد وهيج النار يلتهم خشبها كما يلتهم شوقك قلبي، لطالما تمنينا أن يركض أحفادنا في هذا المكان يلعبون ويمرحون وأصوات ضحكاتهم تعلوا، ثم يأتون إليك لتظفري لهم شعرهم بينما أروي أنا لهم سطور حبنا وأتغزل فيك بين الفينة والأخرى فتبتسمين والتجاعيد تملو وجهك، كيف ستكونين يا ترى بشعر ابيض يملؤه الشيب، لا شك انك ستكونين فاتنة وجذابة، فأنت دائما هكذا في نظري

لا شك أن أحفادنا كانوا ليشبهوك فاحصل على نسخ عديدة منك، أحفاد يتدللون
كما تفعل جدتهم تماما، لا شك أننا كنا سنكون عائلة محاطة بالحب والسعادة
ونحتسي شايا من يدك الحنونتان، شايا بطعم خاص لا نشبع منه أبدا، يدئي
قلوبنا قبل أيدينا

أكان ليدوم حبنا كل تلك السنوات؟

ناردين أنا قرب المدفأة اسمع فرقعات الخشب، أنا أمامها مباشرة ولكنني أشعر
بالبرد، بفرغ يملأ جوفي، أريد أن أبكي وأنحب في حضنك، اشتقت لك حقا يا
نارديني، يا زهرة علاجي، أنا مريض أكاد أموت فأنقذيني من نفسي، من ضباب
أفكاري، أصبح طيفك يمتص من عقلي صفاء تفكيري، شوقي إليك ينجر أفكاري

ناردين الحنين والشوق يقرع أجراس قلبي، هلا تعودين إلي؟ غيابك يقتلني، حبال
المطر تدق النافذة وحبال اشتياقي لك تدق قلبي، لكن الجو ليس مثلجا الليلة،
الصقيع بداخل قلبي غطى أوردتي وجمد شرابييني

منذ رحيلك والأرق له اليد العليا ورغم ضجيج العالم في الخارج واحتفالهم بولوح
السنة الجديدة إلا أن الضجيج بداخلي أكبر، يا ترى ماذا تفعلين؟

لا شك أنك تحتفلين أنت وميلينا تمرحان وتسرحان وأنا قابع بجوار هذه المدفأة
اللعيينة التي حملت آلاف الذكريات أتحسر على فقدانك أنا، كيف ضيعتك من بين
يدي؟ كيف؟

أنا على حافة الجنون، أطرح أسئلة وأجيب عليها بمفردتي، بُعدك سيصيبني
بالجنون أنا واثق من هذا

أدرك أنك تملكين قدرة هائلة في التَّجاوز يا ناردين، ستتجاوزيني وسيزيدك هذا
الأمر قوَّة وصلابة

لما عدت لهيام لا أعرف، كلَّ ما أعرفه أنني أحبها، أجل ربّما أنا كذلك، لكن لم لم
أحضر في اليوم الخامس والعشرين من يونيو لما انصرفت عنك هذا دون مبالاة،
أظنّني كنت أنتظر منك أن ترسلي لي أنت

لكن لم تركتك تغرقين في دوامة تفكيرك؟

أعتذر لم أقصد شيئاً ممّا قلت فحتّى حين قلت بأنك كثيرة الثرثرة وأن رأسي يؤلّمي،
للأسف كلماتي كانت كشبكة مترهّلة لا يمكن الإمساك بها، دائماً تهرب من حلقي،
ندمت لقولها ولكن السّهم كان قد فارق القوس ولا مجال لعودته.

أعرف أنّي أتعاقب عن كلّ دمعة فتاة نزلت من عيونها بسببي، ها أنا أتحاسب عن
هذا يا ناردين ويبدو أنك ذقت لوعة الاشتياق من قبل، أه كم هي صعبة، لقد
أصبحت علّتي بهذا القلب، ذكرى تحرق قلبي، أسهر ليلاً أتساءل هل تتذكّريني وهل
ما زلت على بالك أم زلت؟ هل تحسّين بي؟ أولم يقولوا أنّ الأحبة تتصل قلوبهم
ببعض؟ فهل تشعرين بحال قلبي؟ أحنّ لك، فهل يصلك حنيني؟ أشتاقك كثيراً، لم
أتوقّع لحظة أن المصير سيكون هكذا، أتعلمين... هناك ألف ابتسامة بعد التّفكير
بك وألف شعور بالعار لما سببته لك من خذلان.

سأحاول أن أنساك مع إدراكي أنّ النسيان هو تدريب الواقع على احترام الخيال
وإذا انفجر بياني عنك فإنّ كلماتي كانت بحورًا لا تكدرها الدلاء.

سأكتب لك دوماً بحبر من دم لأنني أكلت أصابعي وقلبي ندما على خسارتك، أتعلمين
تلك الزهور التي زرعتها أنا وأنت كدلالة على حبنا ماتت، لقد ذبلت منذ أن غبت
عني، للأسف انتهت قصتنا قبل أن تبدأ، أنت غادرت وأنا صرت كاتباً، أكتب على
أوراق ملطخة بالقهوة في مقهى ملوث.

أتعلمين دفتر مذكراتك الآن بجواري، أخاف أن أفتحه وأطلع عليه فأجدك قد
كتبت عني ولا شك أنك تتساءلين أين اختفى، لكنك لن تتخيلي أبداً بأنني أنا من
سرقته

أظنني سأفتحه لأطلع على ما فيه

أسف على انتهاك خصوصياتك.

دفتر مذكرات ناردين

كنت كالخيوط الذي يعانق لهيب الشمعة ولا يدري بأنها كانت تحرقه، لقد أحرقت
قلبي يا أفينوس فلم فعلت ذلك؟

هل هنت عليك لهذه الدرجة؟ للأسف خاب اختياري وأنا صاحبة الاختيار السديد،
خذلتي وأنا التي قلت للجميع أنك لن تفعل.

لقد كنت بخير حتى تعلقت بأشياء ليست لي، تعلقت بك...

أتعلم إنني من الحيرة كصغير يمسك جمرة، أنا أكبر هذا صحيح ولكنني وجدت أن حرقتي أكبر، فما بين قلبي وعقلي كتب لي أن أتعثر.

لم فعلت هذا؟ أهديت لك قلبًا مزهرا يتمناه ألف مريض فأرجعته لي جرحا غائرا لن يداويه ألف طبيب، ستبقى ذكراك تدمي قلبي ما حييت، لطالما أردتلك أن تكون طبيبا ولكنني كنت مخطئة، أنت لست المداوي، أنت الجرح والوجع بحد ذاته، أنت لست ضمادا لجراحي، لست سوى جرحي زائداً على ندوب قلبي

لم فعلت بي هذا؟ كنت بحاجة لصدر أسند عليه نفسي، ليللمم بدل مطرقة تهشم فؤادي، كيف لقلبك أن يقسو على قلب لم يختار إلا دربًا واحدًا، درب هواك؟

بسذاجتي المفرطة تركتك تكسر أضلعي بقصد الاتكاء، أهنتك على كل الأذى التي تركته لي ولست حزينه لذلك لأنك في كل مرة كنت تؤذي قلبي كنت أتعلم بعدها درسًا لا ينسى، فشكرًا لأنك جعلتني أتذوق مرارة علقم الحياة وأنا مازلت أزهر، شكرًا لأنك جعلتني أتجرع طعم الخيبات.

أنا بكل ما في عشقت عيونك وصوتك، أنا بكل ما في أحبتك كلك.

صحيح أنه كان لعينيك سحر خاص لكن أه كم كنت غبية حينما كنت أسهر للرابعة صباحا أتأملهما بكل عفوية وحب.

سأقول لك شيئاً كنت كصدفة عرفتك بها وكبلاء على قلبي وروحي وتشتت أفكاري وإرهاق جسدي وسهر لا يخلو من التّدم والبكاء، أتمنّى أن أسامح نفسي بعد كلّ ما فعلته بها.

أتعلم لقد صحا قلبي بعد هذا الألم فالقلب لا يصحو إلا بالألم.

لقد نسيت أنّ بعض الظنّ إثم وأنّ حدس الأنثى يخطئ أحيانا، لم تكن الرجل النزيه المنشود الذي انتظرتة،

كيف انتهت بنا الأمور دون أن تبدأ حتى؟ أكانت تلك لهفة البدايات ومضت، من قال أنّنا سننتهي هكذا؟ من قال أنّ تلك الأيام التي كانت خصبةً بين أيدينا تسلّلت هرباً من أناملنا كما تهرب ذرّات الرّمْل وتنجرّف بين فجوات الأصابع؟

لكن لا بأس فإنّني أوّمن بأنّ ما فاني لم يخلق لي، لأنّ ما خلق لي لن يفوتي.

وكأنّني لم أجد شيئاً أقتل به نفسي فأحببتك، ها أنا ذا أرحل بصمتي الهادئ أجازي قلبك الخائن، ها أنا ذا أرحل بعزّي وأدري شعور العزّي كيفيني

ها أنا ذا أرحل ولن أنسى أنّك أجبرتني على الرّحيل بينما كلّّي رغبة بالبقاء، ها أنا ذا أرحل يا من

وعدتني بأن يكون ما بيننا أبديّ و نسيت أن أسأل أهو حبّك أم وجعي

ها أنا ذا أرحل عنك للأبد يا صاحب الابتسامة البريئة والشامة البنية فوق شفيتك

ها أنا ذا أرحل يا من كانت عيناه قناديل الضياء بعالمي

ها أنا ذا أرحل يا من تمّيت أن يجتمع منطق أفكاره بعشوائيّة مشاعري

أتعلم؟ خير للإنسان أن يندم على ما فعل أحسن من أن يتحسّر على ما لم يفعل

وداعا يا من منحته وقتي

وداعا يا أعزّ العابرين في عمري

وداعا يا من تمّيت أن أشيخ معه لا بسببه

وداعا يا من تعمّقت بخيالي وغصت به معه ونسيت أنّ القدر مكتوب

الوداع إلى أن نلتقي في محكمة الله غدًا لتسأل عن ليلى الذي أبكيتَه وعن كلّ كلمة

أحبك قلتها من لسانك لا قلبك

-أعلم أنّك لن تنساني، قد تناسى أحيانًا لكنّك لن تنسى، لا يمكن لأحد أن ينسى

شخصاً أعطاه هذا الكم من الحب وستندكرني فجأة في زحام يومك أو في أغنية ما،

بين ثنايا صفحة، في سطر رواية ما، أو ربما في اقتباس يمرّ عليك، أو ربما حتى في

يوم ممطر، لن تنساني مهما فعلت، ستسقط دائماً مهزومًا في حيّ كلّما حاولت

التّخلص منه، أعدك بذلك.

فأنا لن أكون مجردَ عابرةِ كغيري في حياتك بل سأترك أثراً في قلبك يذكرك بي،
بعفويتي وابتسامتي وحتى لمعة عيوني وستشعر أنك كلما وضعت يدك على قلبك
تغرق في بحر عميق ولكنك للأسف الشديد لا تملك طوق نجاة

سأترك لك شيئاً بطعم فقدان الحب ويطعم الفراق ربّما، وما أقسى طعم الفراق
ستكون كلّ الفتيات التي بعدي مجرد شيء تحاول به نسياني.

سأخبرك سرّاً صغيراً يا من أذيت هذه الروح وكسرت القلب وأردت أن تستعملني
كوسيلة للوصول إلى غايتك ربّما عيناى لا تبكيان ولكنّ قلبي يتمزّق ويحترق من
فرط دموعه التي تسقط عليه كالجمر يبدو أنّ دمعي ترك عيناى وتوجه إلى قلبي،
أنا لم أعد أحبّك ربّما لا أفكر سوى فيك ولا أشتاق لأحد بقدر حنيني إليك وربّما
قلبي يأبى أن ينبض ويخفق لأحد غيرك ولكنّي لم أعد أحبّك كما أنّي لا أكرهك
وكلّما تأملت ملامحك وجدت شخصا أحبه وأكره حبي له وما أقسى هذا الشعور،
أنا لم أعد أريدك رغم أن داخلي ما زال يطالب بك.

تهيج جروح القلب وتُحرق الروح في الحب الكاذب، لقد رسمتني في حياتك بقلم
رصاص ولمّا أردت أن تستغني عني محوتني بممحاة، ماذا عني وأنا التي رسمتكم بقلم
حبر أسود لا يُمحي؟

لقد كسرت قلبا ما أحبّ سواك، أنا التي لولاك ما ذقت الهوى.

أنا فقط سأتجاوزك كما فعلت أنت بي دون سابق إنذار

لا تشغل البال بماضي الزّمان فلا يأتي العيش قبل الأوان
واغتنم من الحاضر لذّاته فليس في طبع الليالي الأمان

لم أتعلم الرّحيل إلا إليك، يا من أغرقتني في بحر عينيك، أسافر في متاهات الحنين
أعود إلى نقطة الصفر من لظى شوقي إليك، فمتى ينتهي شوقي هذا؟ متى أنتهي منك
للأبد؟ متى ينتهي حنيني لك؟ متى أنساك؟ متى... أظن أن الإجابة ستبقى مخبأة في
رحم الغيب، قد يستغرق الأمر ثلاث سنوات وربما أربع وقد تكون خمسا أو ستًا
ولكن حتما سيأتي يوم محدّد تغادر فيه ذاكرتي للأبد ربما قد يكون الشهر الثالث
عشر من السنة، في اليوم الثامن من الأسبوع في الساعة الخامسة والعشرين من
اليوم والثانية الواحدة والستين من الدقيقة ولكني على يقين بأنني سأنساك
وستغادرني ذكراك إلى الأبد دون رجعة

أو ربّما لا أفعل، فكيف ينسى الإنسان شيئا أحبّه من قلبه؟ لقد أوجعتني برحيلك
فلمن أبوح وأشتكي؟

أشواقي مثل النيران، آه من هم الفراق وأشواق وجداني وآه من فقد الأحباب تستباح
دمعاتي

أعلم يا أفينوس أنّه حتى لو سرقت منا الأيام ففي قلبي تبقى ذكراك، فدربي غدا
قصة شوق تروي أحلام قلبي

يا من أضرمت النار في قلبي لتدفي بها نفسك، يا من حوّلت هذه المضغّة التي تسكنني
إلى رماد وهل للرماد شعور؟

ها أنا أهديك شعرا من روائع المتنبي يا بشيري:

أبلغ عزيزا في ثنايا القلب منزله

أني وإن كنت لا ألقاه ألقاه

وأن طرفي موصول برؤيته

وإن تباعد سكنائي عن سكناه

يا ليته يعلم بأنني لست أذكره

وكيف أذكره إذ لست أنساه

يا من توهم أنني لست أذكره

والله يعلم أنني لست أنساه

إن غاب عني فالروح مسكنه

ومن يسكن الروح كيف القلب ينساه؟

-صراحة لقد تمنيتك معي أمس ولكنك لم تأتِ، ومثل كل ليلة أغفو على أمل

مجيئك ولكن يبدو أننا في النهاية ولا يمكننا الرجوع للبداية

فماذا أفعل بحالي؟ هل أواسي روجي التي تتمتاك أم أواسي قلبي الذي أحبك؟

-أوقن تماما بأنّ الحب الأول ليس الحب الحقيقي، هو مجرد درس يعلمك كيف
تداوي ندوبك وتبدأ حياتك من جديد.

-كم هي غريبة دنيانا؟ إذا وفي الرجل خانت المرأة وإذا وفّت المرأة خانها الرجل و إذا
كان الاثنان وفيان خانهما القدر.

ربما أكثر شعور يزعجني ويؤرقني هو ظهورك في أحلامي؟ أتساءل أتحلم بي كما
أحلم بك؟ هل يمكن لشخصين أن يشتركا في الحلم نفسه؟ أظنّ أن إجابة سؤالي
هذه ستبقى مخبأة في رحم الغيب. في الحلم أنت لي وفي الواقع أنت مجرد حلم.

أتساءل دوما إذا لم يكن لنا نصبة واحدة فلمّ جمعتنا الصدفة؟

ألست أنت من تغريه الأشياء اللامعة فلمّ لم تغرّك لمعة عيني؟ صدقا النهايات كفيّلة
بأن تكشف معادن أصحابها.

أنت تروي الآن ظمأ غيري وأنا هنا يابسة الريق

أأحكي لك حلما لي معك قد ترغب بسماعه؟

-كان يومًا باردا رماديا بائسا، الريح تهب والسماء تعلن عن قدوم عاصفة، كنت
بقربك جالسة أبكي ومريضة متعبة ومنهكة بعينين ذابلتين، نظرت نحوك دون
سابق إنذار ثم قلت لك بصوت متقطّع ومبحوح يوضّح غصّة تقبع في جوفي

-ما الذي علي فعله؟

نظرت نحوي بعينيك الدافئتين ثم أجبتني بنبرة حانية وأنت تضع يدك المتجمّدة
من البرد على قلبي:

-ضعيني في قلبك واتركي الأمر علي.

عيناك كانتا تبدوان كملجأ، كنت حنوناً علي فانبثّ بداخلي شعور الأمان لأفتح عينيّ
فأجد نفسي مستلقية على فراشي وما كان هو مجرد حلم.

-ربما قد يأتي الشتاء المقبل بما نتمنى حبا من الوريد إلى الوريد.

-دائماً أستيقظ فزعة كلّمّا حلمت بك، فمن أشدّ اللقاءات وجعا لقاء شخص في
الحلم فقط

أستيقظ على طيف ملامحك، ربّما أنت انغرست في عمق عقلي الباطني وربّما أنت
تفكّر فيّ كما أفكّر فيك

تجتاح عقلي الدكريات كلّ ليلة فأنام على وسادتي ودموع حارقة تنهمر من عينيّ
وربّما الأمر يشبه غيمة رقيقة جاءت محمّلة بحنين شتاء سابق وقطرات من الغيث
تذرفها عيناى.

أضحيت أحاول جاهدة أن أقول صباح الخير للجميع وأنا أنام بألم ينهش روحي،
لأستفيق صباحاً أغسل وجهي، ثم أتوجّه مرغمة إلى مقاعد الدراسة، القي
ابتسامات وتعابير صباحية على كلّ من أمر بهم وهذا بحدّ ذاته أكبر إنجاز حقّقته
في حياتي ليومنا هذا.

ترككتك لغيري ما دمت وجدت سعادتك معه

وأنا أكثر شخص يتمناك

بغيابك جميع أحبتي لمحو الحزن يعتلي ملامحي

أصبحت أقاوم الوقت بشكل يهلك روجي

فينوس أظنني سأهديك شعراً:

بالأمس كنت قريباً واليوم بتّ عابساً عند اللقاء كالغريب

بالأمس كنت أهل الحبيب واليوم ساعة هنا و أيامٌ فيها تغيب

خاب الظن فيك أنا امرئ تائه ضائع أنادي فهل من مجيب؟

أنا المرء الكئيب أعيش وقتاً عجيب

وأعلم أنّ البكاء والنحيب لن يفيد لا بأس إن كان هذا هو النصيب

فالجراح حتماً سوف تطيب

احترت ماذا سأرتدي اليوم، هل عليّ أن أربط شعري أم أتركه منسدلاً؟ لم

أسالك عن هذا من قبل.

انتظرتك ذاك اليوم بلهفة طفلة تنتظر أباهَا لِأَنَّهُ يُقال أن البنات أقرب لِأَبائهنَّ من البنين ولكنك لم تأتِ وفي ذاك اليوم أنت متّ... أجل، متّ في نظري وكسرت بخاطري ولم تراعي قلبي، هل هنت عليك؟

جعلتني أقضي ليلتي باكية من فرط غبائي وسذاجتي بينما الجميع يحتفلون بنجاحي.

موقنة بأنك كاذب وبأنك لم تشعر يوماً تجاهي بأيّ شعور ولأصارك القول لم أصدّقك منذ البداية. لقد حذروني منك لكنني اندفعت إليك بكامل شغفي، كنت أحمل مليون تحذير من الاقتراب منك ولكنّي ركضت إليك وكأنك آخر الآمال تهورت وها أنا ذا أدفع ثمن تهوؤري وأحترق من داخلي، من البداية رأيت طريقنا يأكل ذاته ولكنّي مع هذا واصلت فيه لعلّ وعسى تحدث معجزة تجتمع بها طريقنا في مفترق طرق ولا نفترق بعدها.

كنت أعلم كذلك أنّك تحاول استغلالي وتراني كوسيلة فحسب ولكنّي تماشيت مع لعبتك فمن يحبّ بصدق يعامل محبوبه بكلّ حنية ولا يهون عليه من يحبّ، ولكنّي للأسف وقعت فيك سهواً أو وقعت في تلك النسخة منك التي تراودني في أحلامي.

لن أكثر الحديث طويلاً فلطالما كنت تكره ثررتي ولطالما كانت تزعجك لذا لن أزعجك أبداً، سأترك الأيام تخبرك من أكون وسيكون رحيلي في صمت دون لوم أو عتاب.

أتمنى أن أنجو منك لأنه كلما حاولت تجاوزك وبدأت بنسيانك خارت قواي، تعذّرت مرّة أخرى ولكنتي في كل محاولة أطفئ شيئاً ما بداخلي تجاهك، لذا وإن استغرق الأمر مني سنوات فلن أياس، سأتجاوزك وأنساك ولكنتي لن أنسى أبداً أنك جعلتني أبكي حتى هلكت.

أساءل هل يمكن أن نخرج من قصّة زائفة بمكتسبات حقيقية؟

أوقن تماماً أن المحبّين يجتمعان في نهاية المطاف ولو تفارقا سنوات، فالحب الحقيقي يبقى حيّاً لا يموت، يبقى كالنار الموقدة في قلب الأحبّة.

أظنّني خدعت بلمعة عيناك، فقد كان بريقهما يلفتني دوماً، لكنني واثقة من أنه لديك لمعة مجهولة في عينيك وشقيقتك التي تصغرك هي كذلك تملكها، ربّما هي من والدتكما...

أستحقّ ما يحدث لي فلو أنّ الخيط ما كان مستقرّاً في داخل الشمعة التي ذبلت ملامحها بعد أن احترقت بلهب حبّك الذي ظننته نوراً بينما كان هو ناراً.

أكتب إليك لعلّ حروفي تطغى لكن من لم يأت به الشّوق هل ستأتي به كتاباتي الرديئة ورجفتي وأنا أحاول أن أمسك قلبي الأسود ولكنتي أظنّني أكتب لأنّ الكلمات المنطوقة تعجز أن تقدم شرحاً أوفى ممّا تقدّمها سيدها المكتوبة، أو أنا أكتب لأنّ كلّ كتاباتي ما هي إلا انتصارات على ذاتي.

لا أعلم لما أبث إليك ضعفي وتعبتي وغرقي في بحر التيه والأحزان مع أنه يجب أن أبدو بكامل قوّتي وثباتي

أتعلم يا أفينوس لا أظن أنّه هناك أصعب من أن تعود غريبا على من تعرّت روحك أمامه، أن يسير المرء بخطوات مرتجفة كغريب في مكان كان ذات يوم أمنا لروحك. اللهمّ قلبي فأنت تعلم وهم لا يعلمون.

- ترى هل ستموت ذكراك في قلبي؟ هل الذّكري كالأشخاص كلّما عاشت وكبرت وشاخت ماتت فانتست؟

- ويبقى في جوفي كلام يحكى وأحاديث طويلة تمنيت لو سردتها لك ولأصارك بشيء فلطالما كنت صريحة فكما قلت لي ذات يوم أبهريني بهوورك وقولي كلّ شيء ولهذا فلتعلم أنّي لم أندم قطّ على معرفتي بك، فقد كان خطأ تعلمت منه الكثير، كنت أعظم درس لقيته لحدّ الآن ولكنّه كان درسا بعد امتحان الحياة لي فهي دوما تسيير عكس القوانين التي تلقيناها في المدرسة فهي تبدأ بالامتحان ثم تنتقل إلى الدرس ليبقى خالدًا في ذاكرتنا عالقا كحرقة أو كغصّة تختلط بكلامنا حتى لا ننساها فهي تعلم دوما أنّنا درسنا.

- بدايتنا كانت غير مفهومة ونهايتنا كانت أكذوبة ولكني لا أعلم أكانت أكذوبة مشاعرنا أم أن مشاعرنا كانت صادقة وأفعالنا كانت كاذبة... من يدري؟

- أظنّنا سنبقى هكذا، سنبقى أنت داخل كهف تجاهلك، فالتّجاهل والصّمت العقابي سلاحك الخاص؟ أليس كذلك يا أفينوس؟

-وقبل أن أغلق أسوار حكايتك للأبد في سطور مذكرتي هذه وأود أن أعلمك بأنني سأشفى من ألمي وسيلاحقك أنت كاللعنة فقد هزرت سكينتي ونهشت طمأنينتي ومع أنني لا أتمنى لك ذلك أبدا ربما لأن حالك من حالي وسيظل.

أتمنى لك أن تبتسم يوما وان تعيش سعيدا مرتاح البال مطمئنا بقرب أحبائك وعائلتك، حبيبتك

أتمنى أن تعيش محاطا بالحب وسعيدا دوما ومبتسما بهيجا ومتفوقا و أتمنى كذلك أن لا تنقطع من دراستك إن لم تكن فعلت ذلك.

أتمنى لك كذلك زوجة تحبك وأولادا طيبين يشبهون تفاصيلك.

-هناك رسائل لم تصل ولا أظن أنه سيكون هناك نصيب لتفعل وسأحتفظ بها في أدراج ذاكرتي للأبد وحسب، فكم من رسائل يكتبها الحنين ويحذفها الكبرياء.

دمت سالما للأبد، حفظك الله يا من تحمل البشائر والأخبار السارة، أو من بمقولة أنه لكل أحد نصيب من اسمه.

فردوسك "ناردين"

921_ لا أريدك في حياتي_

-لم أكن أستطيع التّحمل أكثر، توجّهت للحديث معك، لعلك تغفرين

بادرت الحديث قائلاً:

-أهلاً.

-أهلاً، ماذا تريد؟

-كيف حالك؟

-أنا بخير.

-أتحدث معك... كيف حالك؟

-قلت لك للتوّ أنّي بخير، ألا تراني أحادث الجميع وأبتسم؟ ألا تراني أعطي
الطمأنينة للعابرين، لا تقلق فقط روجي متعبة ونظراتي شاردة وندوبي غائرة وأسأل
الله الثبات وتجاوز هذه المرحلة.

-ما الأمر؟ هل غلبتك؟

-أنت لن تغلبني ولو أنّ الحب غلاب، من حضرتك لتندلّي، كنت القريب وكلّهم
أغراب لكنك الغريب الآن، فقط غادر واعتبرني أحداً أخطأ وتاب.

-إذن ترينني خطأ.

-رَبِّمَا.

-أَمَات ذَاكَ الْحَبِّ الَّذِي كَانَ بِقَلْبِكَ تَجَاهِي؟

-الْبَعْدُ يَقْتُلُ الْحَبَّ وَيَحْرِقُهُ كَذَلِكَ.

وَجَاءَتْ عَيْنِي فِي عَيْنِكَ وَطَالَتْ السَّكْتَةُ، فَقَطَّعْتَ أَنَا صَمْتَنَا الْمُرِيرَ:

-لَمْ أَنْتِ صَامِتَةٌ هَكَذَا؟ لَيْسَ مِنْ عَادَتِكَ، مَا الَّذِي أَنْهَكَ وَمَا الْبَسْمَةُ عَنْ مَحْيَاكَ؟

-أَنَا لَسْتُ صَامِتَةٌ، أَنَا أَتَكَلَّمُ لُغَةَ الْأَلَمِ الَّتِي لَنْ تَفْقَهَهَا، أَتَكَلَّمُهَا فِي دَاخِلِي فَلَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَاتِي الْعِتَابُ، لَقَدْ أَنْهَكَتْ نَفْسِي بِحَرْبٍ لَا رَأْيَ لَهَا.

-إِذْنِ عَاتِيْبِي، قَوْلِي أَيَّ شَيْءٍ، اصْرُخِي عَلَيَّ.

-مَا عَلَيْكَ عَتَبُ، لَسْتُ أَوَّلَ شَخْصٍ يَكْسِرُ بِخَاطِرِي.

-أَلَمْ تَمُوتِي شَوْقًا لِي؟

-هَهْ، أَنَا لَمْ أَمُتْ خِذْلَانًا تَظَنِّي أَمُوتُ شَوْقًا.

-أَيُّحَقٌّ لِي أَنْ أَسْأَلَ كَيْفَ تَمَرَّ أَيَّامِي بِدُونِكَ؟

-لِأَصَارْحُكَ، هِيَ تُكَلِّمِي، تَنْتَشِي الرُّوحُ إِنْ مَرَرْتُ بِخَاطِرِي، يَا مَنْ لَمَسْتَ هَذَا الْقَلْبَ بَعْمَقٍ ثُمَّ تَرَكْتَنِي، لَقَدْ وَقَعْتَ فِي حَبِّكَ مِنْ طَرِيقَةِ كَلَامِكَ، لِلْأَسْفِ أَنْتِ كَذَّابٌ جَيِّدٌ.

-إذن شعرت بطعم خسارتي.

-خسارتك، أتمزح!! أنا لا أؤمن بالخسارة، يخسر أولئك الذي يعتقدون بأن الخسارة موجودة وأنا لست منهم فلا طعم لخسارتك لأنه لا وجود لها من الأساس، فأنا يُندم علي ولست بنادمة لأنني من الخسائر ولست الخاسرة.

-إذن فقد نسج عنكبوت الفراق خيوطه بين أناملنا.

-هه نسج، تقصد أنك من جعلته ينسج بتجاهلك لي.

- سامحيني.

-من يخبر الغصن المكسور بأنّ الريح قد اعتذر.

-هل يمكن أن نعيد المياه لمجاريها.

-لننقل أنّنا فعلنا وأعدنا المياه لمجاريها، فهل للماء أن يعود صافيا نقياً عذبا كما كان؟
أم أنّ البعد عكّر صفوه.

-أما شعورك تجاهي؟

-تعلمت أن لا أقاتل من أجل الشّعور، تعلمت الوداع.

-لكن ألم تكوني موطني، ألسنت كذلك؟ لمّ لا تحنّين عليّ وترحبين بعودتي كما تفعل الأوطان مع أبناءها الغائبين.

-تحنّ الأوطان لأبنائها الأوفياء أمّا الوشاة المخادعون فهي تأبى حتى أن يدوسوا
ترايها.

- إذن لن نعود لبعضنا، هذا ما ترمين إليه، أليس كذلك؟

- أجل، تمامًا لم أعد أريدك رغم أنّ داخلي ما زال يطالب بك، لقد انتظرتك طويلًا،
وإنّ الذي ينتظر طويلًا كأوراق الخريف تصمد كثيرًا ولكنّها في النهاية تسقط
لتسوقها الرّيح إلى مكان مجهول لتلاقي أقدارًا غير معلومة.

-أتعلمين ماذا قال نزار قباني؟

-ماذا؟

-إذا انتهى الكلام بيني وبينك وانقطعت سبل الوصال وافترقنا وعدنا غرباء... تعرّفني
عليّ مجددًا.

-أتعلم ماذا قال أيضًا؟

-ماذا؟

-أيظنّ أنّي لعبة بيديه

أنا لا أفكّر في الرجوع إليه

اليوم عاد وبراءة الأطفال في عينيه

ليقول لي أتّي رفيقة دربه وبأنّني الحب الوحيد لديه.

-دعينا نتصالح إذن؟

-لا اعتذار يعيد الثّقة من بعد ما هُدمت، لا اعتذار يمحو قسوة الأيام، تدرك أن أجمل ما في الحب الثّقة ولكنك خذلك ثققي.

-ناردين لكن ألسنت من قلّت أنّ الحب لا ينتهي؟

-أجل

-ألسنت من قلّت أنّ المحبّين إذا تخاصما عليهما أن يتصالحا من جديد.

-أجل ولكن قلّت المحبّين.

- ماذا يعني هذا؟

نظرت لي حينها نظرات مجروحة.

-جاسم، إيّاك أن تلمس قلبي مجدّداً، لن أسمح لك أن تلوّثها، إيّاك أن تلمس جرحاً يدمي كنت أنت سببه، لقد باتت السّيطرة على جرحي مستحيلة، لا تلمسه فما عادت يدالك تؤتمن.

-لما لا تؤذيني إذن؟

-حاشا أن نردّ الأذى بمثله، نحن أهل الود لا أذى في قلوبنا.

أحسست حينها بصوتك الدّفين يتكلّم بأنين وينطق عن قلب حزين.
-ناردين.

-جاسم كفى ليذهب كل منّا في طريقه.

-لكنّ طريقي نحوك.

-إياك أن تظنّ أن عنادك سيحطّم صخرة عنادي

تعتّر حينها الكلام في فمك وصارعت الدّموع السّاخنة لاحتلال عينيك.

كان انهيارك جارفا وقاسيا حدّ الوجع.

ثم قلت لي وكانت تلك آخر كلماتك..

-أفينوس، نحن من البداية لم نكن مناسبين لبعضنا، لكنّنا مضينا في غياب
التّجربة، يكفي لا أمل لرجوعنا.

قلتها وتكسّر صوتك إلى قطع لا متناهية، وتفجّرت الدّموع من عينيك كشلال
وينابيع حارة لكتّمها هذه المرة حارقة جدا.

وغادرت للأبد وبقي صدى كلماتك يدوي في نفسي.

-انتهينا هكذا ببساطة، كيف ذهبت كلّ تلك الوعود هباءً منثورا، كيف أنهدم في
لحظة كلّ ما قمنا ببنائه من آمال في دقائق معدودة.

وَكَأَنَّ صخرة علققت فى حنجرتى لم أستطع الوصول إليك؁ أرهقنى برودك وكأَنَّك
فجر أحد أيام يناير؁ وسار كل منّا فى اتجاه مختلف بأقدامنا المتعبة وقلوبنا المنهكة؁
ابتعدنا ولم تمسك يداى سوى الفراغ وباتت خيوط الأمل تنفلت تدريجياً منى.

832_ سأكتب عنك إلى أن يأتي وقت موتي_

-ناردين يدمي فراقك قلبي ويريق دمعي ويرسم صور الأسمى على محيَّاي، أنا مجنون
الآن أتعلمين، مجنون بسببك.

أنا في المصححة النفسية الآن.

-يظنني الجميع مجنوناً لأنني أتحدّث وحدي، هم يرون المكان حولي فارغاً ولكنّه
يغصّ بالغائبين، وكل الغائبين أنت، إنها أطباقك التي باتت تعذبني وتعاقبني لأنني
تخلّيت عنك... فهنا أنت ذا ستراقبيني حتى أفنى إلى موتي.

_صحيح أنك لست بقربي ولكنك تحتلين جميع أفكاري، يا ترى أين أنت الآن؟
ستظلين حاضرة بداخلي للأبد، تخنقيني بغصّة في جوفي كلّما أردت أن أتكلّم لذا
سأدرّب نفسي على الصّمت الطويل، سأبتلع الكلمات لأنني لم أعد بعدك قادراً على
الحديث.

_منذ أن رحلت أخذت معك روحي.

_مرضي هو أنت، أنا أتألّم ألماً رهيباً ولا يمكن معالجاتي، هذا الألم يخنقني ويفتك
بي، إنّه في قلبي يحرق شرايينه وأوردته ببطء.

-لو تعلمين ما حلّ بحالي بعد رحيلك، ما عاد كياني بعدك يا زهرة علاجي يحتمل،
أصبحت هشاً وضعيفاً يتجنّبني الجميع، يروني مجنوناً، أنا مجنون بك ربّما أمنيّاتي

التي كنت أتمناها معك هي التي كانت تمنعني من الجنون، للأسف لم يعد لي آمنيات بعد الآن.

- ليس كلّ مجانين المستشفى بمرضى عقليّين أو نفسانيّين ربّما هم مرضى قلوبهم مثلي، ربّما لم يفتك بهم الهديان فالهلوسة ربّما لم يفتك بهم الحب فكما يقال الحب لعنة.

- ربّما قد نلتقي مرّة أخرى.

- أحاول دوما أن أقنع نفسي بأنّي لم أخسرك، ألوم نفسي دوما وما أقسى تأنيب الضمير، كم هو قاسٍ شعور تأنيب الذات للذات.

- أتعلمين لقد أصبحت أدرك الكثير من الأشياء الآن:

استخلصت أن الحب هو أنّي أعلم بأنها يقينًا تستحق من هو أحسن مني ولكيّ لن أستطيع تركها لغيرها فأصبح الشّخص الذي تستحقّه هي، وأنّ الحب جنة لا تقبل المدنّسين، وأنّ الخير لا ينتصر دائما على الشرّ ولأنّ كلّ الأشياء لا تنتهي كما نشاء والطريق الذي بدايته ورد قد تكون نهايته أشواك والقصة التي بدأت بابتسامة قد تنتهي بدمعة وتلك البداية المشرقة قد تكون أحيانا نهايتها محرقة وأن سرقة القلوب جريمة لا يعاقب عليها القانون ولكن يعاقب عليها القدر.

-ناردين، غبت عن عيني والأيام تشغلك لكن عن قلبي لا والله ما غبت، نعم لقد تماديت ببعده يحرقني ولكنك رغم البعد تيقين حبيبي.

-أصبحت أَدَسُ بِكائِي بِكْتَابَاتِي، فَكُلُّ كِتَابَاتِي مَبْلَلَةٌ، أَعْلَمُ الآنَ تَمَامًا أَنَّ الكَلِمَاتِ لَا تَأْتِي مِنْ فَرَاغٍ كُلِّ كَاتِبٍ إِنَّمَا تَأْتِي بَعْدَ أَنْ يَمُرَّ مِنْ دَرَبِ الأَلَمِ الَّذِي عِلْمُهُ الكَثِيرُ مِقَابِلَ أَخْذِهِ الكَثِيرِ مِنْهُ وَأَنَّ الكِتَابَ لَا تُولَدُ إِلَّا بِسَبَبِ الخِيَابَاتِ، لَقَدْ كَانَ مَصْدَرُ إِلهَامِي هُوَ أَنْتِ، أَنْتِ المَخْبُوءَةُ فِي كَهْفِ أَحْزَانِي.

-وَهَا أَنَا أَكَلْتُ عَقْلِي وَقَلْبِي نَدْمًا عَلَى خَسَارَتِكَ فَأَصَابِعِي العِشْرَ لَمْ تَكْفِينِي.

-وَفِي النِّهَايَةِ، يَكْتُبُ الإِنْسَانُ عِنْدَمَا يَتَأَلَّمُ.

النَّهْيَةُ

-أَلَيْسَتْ مُؤَلَّةً هَذِهِ القِصَّةُ؟ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ أَوْرَاقُ جَاسِمِ المَكْدَسَةِ تُشْبِهُ سَوْرًا وَرَقِيًّا، مِنْ كَانَ يَتَخَيَّلُ أَنَّ ذَاكَ الشَّابَّ اليَافِعَ سَيَصِلُ بِهِ الأَمْرُ إِلَى هَذَا الحَدِّ، أَصْبَحْتَ أَدْرِكُ أَنَّه حَتَّى الرِّجَالُ يَنْكَسِرُونَ مِنْ فِرَاقِ أَحِبَّتِهِمْ، هُمْ لَيْسُوا حِجَارَةً صُلْدَةً لَهُمْ كَذَلِكَ مِشَاعِرٌ وَمَا أَصْعَبُ قَهْرَ الرِّجَالِ.

-أَتَسْأَلُ أَلَمَ يَكُنْ بَوَسَعْنَا العَيْشَ دُونَ عِشْقٍ وَدُونَ اشْتِيَاقٍ؟ أَلَمَ يَكُنْ بَوَسَعْنَا الذَّهَابَ لِلنُّومِ هَانِيٍّ البَالِ مَطْمَئِنِّينَ؟ لَمْ نَدْمَرْ دَوْمًا أَنْفُسَنَا بِمَا يُسَعِّي الحُبَّ؟ صَحِيحُ الحُبِّ لَيْسَ عَارًا بَلِ العَارُ أَنَّ لَا نَحِبُ وَأَنَّ نَخْذَلُ مِنْ نَحِبِ هَذَا هُوَ العَارُ الحَقِيقِيُّ.

-لَيْتَ بِالحَيَاةِ قَانُونٌ يَنْصَحُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ كَسْرِ قَلْبًا أَوْ جَرْحِهِ عَلَيْهِ جِبْرَهُ حَتَّى يَدْرِكَ الكَاسِرُ أَلَمَ المَكْسُورِ.

لن أنكر أنّي أحببت قصّة حيماء، بدايتها وتفصيلها الصغيرة، للأسف لم يكونا يعلمان أنّ الحبّ كخيوط المطاط يسحبه كلّ الطّرفان إلى جهته فإذا أفلته أحدهما تألم الآخر بلسعه.

-وأنه في زماننا هذا عند مطلع الحب تكون لهفة البدايات وفي نهايته لا شيء سوى جرف يطل على صخور تلطمها الأمواج الغاضبة.

- ما أروع الحب في البدايات وما أقبحه في الفراق.

-أشفق على جاسم، كنت أراه شخصا طيبا، لم تخطئ ناردين حينما أخبرته بأن الطيبة تليق عليه، في عالمنا هذا هناك الكثير من الضحايا، ضحايا حب وضحايا حرب وضحايا غدر الأصدقاء ولكن أكثر الضحايا في يومنا هذا هم ضحايا أنفسهم فهم يؤذون أنفسهم بأنفسهم، وأغلبهم النرجسيون كجاسم

قالتها أيميل سوزان :

"الألم يؤدّي بالبعض إلى الجنون لكننا لا نرى الألم، نرى الجنون فقط"

لو كنت أعرف جاسم وناردين في ذلك الوقت، ربّما كنت استطعت أن أصالهما.

لطالما تساءلت في نهاية كلّ قصة حب كهذه هل يؤذي المحبوب حبيبه؟

-حزنت حقًا لتلك الفتاة، هي أدركت أن الأمر أحيانا أكثر من شخص واحد لقلب موازين حياتك فإما تزهو وإما تدمّر، هي لم تكتشف خطأ الطريق أثناء السير مطلقا بل في محطات الانتظار، أجل اكتشفت ناردين ذلك وهي في محطة انتظار جاسم

مضت عدّة سنوات منذ أن أُغلق مقهى ملتقى الأرواح التائهة، ولكن الناس الذين جاؤوا إليه لا زالت ملاحظتهم عالقة بذهني حتى يومنا هذا، لقد تركت رحلتهم في الحياة ندوبًا لا يمكن ملاحظتها، كل واحد منهم علّمني شيئًا، تعلّمت عدّة عبر من ذلك وأدركت الكثير.

تعلّمت أنّ العالم ليس حزنًا وسعادة فحسب بل هو مزيج من سعادة لم تكتمل وحزن لن ينتهي.

وأنّ طواحين الرّمن تفعل بنا الأعاجيب ورغم ذلك نتحمّل كلّ ما تأتي به، لأنّ في وقوفها موتها وفناءنا، ووحده الإيمان يستطيع مواجهة كلّ ما تأتي به، مرتفعات الحياة ومخفضاتها تأتي لا محالة فتلك هي مواسم وجودنا.

هكذا هي الحياة، حلم يتحقّق وحلم يتعثر ولقاء بلا موعد وفراق بلا سبب فلا بدايات نتوقّعها ولا نهايات نريدها.

تمّ بيع ذلك المقهى لمستثمرة في مجال العقارات، قرّرت تحويله لجنة، إلى ما يليق به، إلى أن يصير مكانًا يستحق أن يتواجد في شارع باسم "هيمل" وقد تحوّل إلى ذلك حقًا، لقد صار مكانًا خلابًا لا تملّ العيون من النظر إليه.

هل يقودكم الفضول إلى من قرّرت الاستثمار في هذا المقهى؟

إنّھا "ناروين"



تمت بحمد الله

FS PANISEAIELS

مُلْتقى الأرواح النَّاهة

فردوس نجاري

Avinous

أستودعك حفظ الله الذي لا تضيع ودائعه

TEL:0676890467
E.mail:tohfapublishhouse@gmail

ISBN: 978-9969-9859-2-4



9 789969 985924



حفلة النشر والتوزيع
tohfa_publish_house

ولاية باتنة- بلدية بوزينة
-حي تيفيراسين- أويره